

مقارنات
فصول

إدوار الخراط

محطة السكة الحديد

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
١٥،

إدوار الخراط
محطة السنكة الحديد



مختارات فصول

سلسلة أدبية سهرية

يصدر عن

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

رئيس مجلس إدارة

د. عز الدين اسماعيل

تصميم الغلاف : حسين أبو زيد

الإشراف الفني : راجية حسين

أبريل ١٩٨٥

إشراف

سليمان فياض

(١)

كانت خبطات القطار المنتظمة الرتيبة قد أتخمت
نفسه ، بدقاتها المستمرة • لا تتوقف ، لا تتريث ، تتقدم
دون وهن فى تصميم دائب يأكل من نفسه امتدادات
طويلة ، فى طريق لا ينتهى • وكان قد نام قليلا ،
وشبعت دماؤه ، فى تهويم النعاس ، من هذا الدق
المتواصل • وبه شىء كأنه سكر وخدر من هذه الضربات
العنيدة التى لاتنى ، مدفوعة الى الأمام ، فى عزم لن
يقف أمامه شىء •

وفتح نافذة القطار ، وآفلت لحظة من الضوء
المصفر المترب الذى يسقط فى العربة المزدحمة ، يهتز
كسائل كثيف مشبع بانسانية متعبة هدتها هزات الرحلة
المتعاقبة • وهبت عليه من الخارج ريح الاسكندرية

الممدودة أمامه تحت سماء الليل ، والقطار يهتز مندفعاً
يدق الأرض اليها فى مجهود أخير . وأنوار الاسكندرية
تومض مرمية على انحناءة خط طويل ، واعدة بأمانى
غامضة ، براحة الوصول ودفء المدينة . ونسمة خفيفة
ملحة هينة تأتية عبر الخلاء العشوش بالحشائش
الصعراوية الطويلة ، فيها عزاء ينفس له الصدر ،
ويقبل طراوته .

عاد الى مقعده ، وكان يخيم على العربية جو ثقيل
مختوم ، وقد خلع العسكرى الضخم الذى تكوم أمامه فى
سترته السوداء ، طربوشه واكتفى بطاقيته الميري من
العبيك الباهت تشد مابقى من شعر شائك رمادى خشن
على صلعنه المتينة ، وقد سكت الطفل الذى يلتصق ببطن
أمه فى ملاءتها الريفية وراح الآن يمص ثديا جافا
مهذلا مجعدا لاتكاد الملاءة تخفى بذاءته ، ومازال بائع
السودانى يمر بالقطار ، حاملا قفته وقراطيسه الملائنة،
والشيخ الأعمى الذى يبيع النعناع وآيات القرآن
وعدية يس ، والعيال العفاريث الذين هدم التعب
وبحت أصواتهم ومازالوا بعد ينتقلون من عربية الى
أخرى فى خفة ، ينطون وينادون على الليمون للعطشان
والكاكولا والببس ، ويقرقعون على الجرادل المليئة بالماء

والزجاجات • وقد سقطت الرؤوس على المقاعد الخشبية
فى استسلام كأنها لم تعد ملكا لأصحابها بل ملكا لقطار
يدق بهم الأرض فى تصميم ، الى غاية لن يبلغها قط •

تعبت عيناه من النور المسلول الشاحب المعلق
كالتراب فى القطار المهتز الى الأمام بسرعة لا تتناقص ،
وهو يكاد يسمع مصمصة شفتى الولد الذى يرضع من
بز ناشف ، وتنداح فى نفسه رغبة فى أن يعطى من
نفسه لهذه العلة الانسانية الصغيرة التى ما تنى تتطلب
الحياة ، رغبة حنانة كأن نفسه قد ذابت فى وسط هذا
الجمع من الناس ، وامتزجت بهم من الخارج ، بعصارتها
الثقيلة • أذابتهم معا تلك الساعات الطويلة التى
قضوها فى القطار فكأنهم ألصق من الاخوة : الأفندى
الرب الذى يجلس الى جانبه مع حقيبته القديمة المربوطة
بدوارة ، فلاشك أن قفلها قد خرب • وحتى العسكرى
الذى يشخر فجأة فى نومته المليئة ، ويتنحنج من كرشه ،
ويعدل من جلسته القلقة على خشب الكرسى • وهذه الأم
الريفية الأصل بثيابها ومدورتها البلدية على عظام وجه
مرهف بشهوات حادة لا رضاء فيها ، بل هى لهفة ثابتة
لم تعرف الشبع أبدا ، حتى مع الولد • والصعايدة
والفلاحين الراجعين الى المدينة وقد خفت الحياة قبضتها

عليهم لفترة الرحلة القصيرة ، ولكنها تركت آثار هذه
القبضة القاسية على الوجوه الخشنة العميقة الأخاديد ،
على الذقون النامية الشائكة لم تعلق بمد ، والثياب
الرثة غير النظيفة تماما على أجسام مفتولة أو منحولة ،
لا تكاد تمت هذه الثياب الى أجسام أصحابها بصلة ، كأنها
ملقاة عليها ، غريبة ، غير مستقرة ، وغير متصلة بها .
واحتدات هذه الأجسام قد همدت لحظة ، والهواء يدخل
من الأفق الصحراوي المنتهى الى البحر ، وينفذ في
زهومة الكثافة الانسانية في القطار ، فيكملها ويعطيها
معنى غير واضح .

خفتت سرعة القطار وتغايرت أنغام دقاته وهو
يصطفق بالشبكات الحديدية من القضبان ويمر تحت
علامات متباينة في أعمدة السيمافور ، والبيوت تجري
الى جانبيه . وفي العربية نشاط فجائي والقصف تنزل
من على الرفوف ، والحقائب والملاحف والمراتب واللفائف
المربوطة في الخيش ، والمرأة الريفية ترفع طفلها الى
كتفها فيستأنف صراخه وتطلب من الأفندي الرث
المنهوك أن ينزل لها القفص والقفة يافندي وحياة النبي ،
فينشط وهو ينزل الأحمال الثقيلة ويترنح تحتها وهو
يكاد يقع فيلتصق بالمرأة ، عن غير عمد ، في مجهوده ،

ويعتئيب له هذا الالتصاق لحظة من زمن ، والعسكري
يشد حزامه ويتنخم في منديله الأحمر الباهت ويضع
طربوشه على الطاوية المرى العبك . والناس يقومون
ويتزحزون ويفتحون الشبابيك ويقفون استعدادا
للنزول وعلى شفاههم ابتسامات متعبة ، ويلفطون مع
بعضهم البعض فى شىء كأنه فرح طفلى بالوصول .

أخذ القطار يبطلء أخيرا وهو يدخل المحطة
المنيرة ، ويصفر فجأة تحت السقوف الزجاجية المرتفعة
فى دوى مظفر ، ويقرقع ويصلصل وهو يقف فى
فخامة ، كجواد أصيل يرفع رأسه عند الوقوف ،
وتقاطرت جماعات الشيالين بأرديتهم الزرقاء وأحزمتهم
الجلدية العريضة المتينة ، يمدون أيديهم الى النوافذ
ويتلقفون رزقهم من القفف والشنط ، وصغار الصبية
خلفهم يتزاحمون على الأفندية والسيدات ويشدون
حقائبهم : شيال ، شيال ، والناس يسرعون فى الأضواء
اللامعة . وأصداء القطارات تتردد فى المحطة كأصوات
تتنادى فى رنين مثير .

وهو ينزل الى الرصيف ويستعيد مقدرة ساقيه
على المشى بعد الخدر الطويل ، ويجد أمامه من بعيد ركاب
البولمان والدرجة الأولى فى أناقتهم الملونة وحقائبهم

الجديدة الرشيقة يسرعون خارجين ، وخلفهم يهرول
الجمع المختلط من الانسانية الصغرى المضطربة بين
الأولاد الصالحين من نومهم يتعلقون بأبائهم وأقربائهم ،
وهو يحس المدينة خارج المحطة بشوارعها الهادئة الخالية
تقريبا ، مستريحة آمنة ، مضيافة .

اتخذ طريقه الى سلم النفق الأرضي للخروج بعيدا
عن الزحمة على الباب الضيق ، أو هكذا علل لنفسه
سلوكه ، وان كان قد دار بذهنه ، من بعيد ، أن النفق
لايفضى الى الباب ، بل الى رصيف آخر . لكنه لم يصغ
لهذا الصوت الصغير البعيد .

ونشق على السلالم العريضة ريحا باردة أرضية ،
من النفق المنير الخالي ، والبلاط الأبيض يلمع على حائطي
السلم ، مصقولا ينزلق عليه النور كما ينزلق ماء خفيف
رائق . وهو اذ ينزل وحده على الدرجات العريضة يحس
أنه يدخل على عالم آخر هادئ ، تتجاوب به أصدااء
بعيدة متطاولة في الفراغ الأجوف ، وتتراشق الجدران
الملساء بهذه الأضواء ترسلها الواحدة منها الى الأخرى
اذ ترتد عن سطوحها الناعمة ، عبر مسافات خاوية .
وهو يحس سعادة غريبة توسع من صدره ، لأنه وحده

فى هذا العالم السفلى المضىء المحدد الجوانب ، المنسرح
تحت الأرض فى مستوى آخر .

وفجأة امتلأ عليه هذا العالم ، فى فراغه . وأحس
شيئا وراءه ، خطوة خفيفة مسترقة ، نغمة ، نفحة
هواء ، لا يدرى . ولكن هناك حضورا يتربص به من
خلفه ، لاشك ، شيئا يرقبه ، كأنه يرصده بعينه
الخفيتين ، وينتظر حتى يوقع به ، حتى يطبق عليه .
وأحس قدميه تتجمدان تحته ، ونظره ثابت موجه الى
الأمام ، وهو لا يجروء على النظر الى خلفه ، بل
لا يستطيع . ينزل السلالم ببطء ، ويشعر بهذا الغريب
يسوده من أعلى السلم ، وراءه . وهو يريد أن يتحقق
من هذا الذى يثقب ظهره ببصره ، ولا يستطيع ، بل
لا يجد أدنى قوة على رد بصره الى الخلف . والسلم خلفه
خاو عريض مرتفع صاعد الى أعلى ، تنزل منه رياح
الخوف . وهو موقن بأنه مراقب ، بأنه واقع فى قبضة
بصر ذى نوايا ، ولا يستطيع أن يخرج من هذه الشبكة
غير المرئية .

واستدار فجأة اذ وصل الى أرض النفق ، وداراه
الحائط ، ودخل فى النفق الطويل الممتد . وأحس أمنا

وروحا ، اذ أفلت من هذه العين الواقعة عليه ، تنفذ الى
كيانه من الخلف ، فى تصميم غرضها الذى لا يحدد .

والمصابيح الكهربائية القوية تملأ الممر بنور ساطع
على الأرض السوداء ، والحيطان تقوم على جانبيه ببلاطها
الأبيض الناعم ، صقيلة لزجة ، لا يلصق بها شيء .

وأخذ يحث خطاه ، وقد استشعر حرите من هذه
النية التى كانت تحقق به ، وأحس انفساحا أمامه فى
النفق المنير الطويل الواسع الجنبات المنفتح عن سلاسل
جانبيه متعاقبة كثيرة .

وأخذت عيناه بالقرب من نهاية النفق ، تحت مصباح
كهربى ، شيئا مختلطا متلاصقا ، كائنا فيه من البشر
شيء ، لولا أنه أكثر من كائن بشرى . تسقط عليه من
المصباح حزمة مخروطية ساطعة من نور لا يرحم ، وقد
اختلطت فيه الأذرع بالأكثاف ، تحيط ببعضها البعض ،
وضاعت فيها رأسان ، فى امتزاج غامض المعالم ، بين
كتفين ملتصقتين ، واختفت العيون فى حمى ظلام داخلى
خاص مسدود على نفسه ، تحت عين مفتوحة من المصباح
الكهربى المثبت فوقهما ، ينصب منها نور صلب ثابت
الحدقة ، وقد جمدت الهدوم الرثة المضطربة ، وسكن

كل شيء ، سكون مرعى من العشب الناعم الرقيق به
هياكل ونصب عريضة ، تعاقت عليها عواطف حارة
متربصة ، وليال صافية من الوحشة ، ولا نهاية من
سماوات الظهر الخالية .

وقد أوقعه هذا الكائن فى فتنة لا زمن فيها ، وهو
يتجه اليه كالمأخوذ ، كأنه يطيع مصيره فى هذا النفق
الساطع تحت الأرض تتجاوب فيه أصدااء ليست من
العائم وان كانت توحى بمعناه الخفى .

وترن خطواته فى فراغ النفق ، وهذا الشيء الذى
يلتصق بالحائط الأبيض اللزج يتحدد وتتضح معالمه .
ولكنه لم يستطع أن يحول بصره عنهما ، هذه
الطفلة وشيال نحيل ضئيل عنيد الوجه ، ومازالت
بينها المرمية على ظهره أوراق يانصيب قديمة يجمعها
مشبك حديدى صدئ ، وثيابها السوداء الباهتة الخلقة
تتجمع فى طيات مضطربة تعجرت كأنها من تمثال أثرى
قديم مصقول الحجر ، يقف فى نشوة غائبة . ويدها
مرمية بلا حياة على قميصه الكاكي المشعث القديم ، على
ظهر جاف انحنت عظامه كأنما نضب منه ماء الحياة ،
يتعدى الجفاف فى تضحية حانية . وهما يلتصقان
ببلاط الجدار الأبيض ، كأنهما علققان جافتان لاتصلان

أبدا الى الدم الذى تبعثان عنه • ولاشئ يعنيهما ،
فكأنه لم يمر بهما ، والرؤوس مختلطة المعالم ، مدفونة
فى رائحة الشعر الملبد الكثيف بين قماش الهدوم القديمة
المتراكبة الرقع فى جمود منسى ، لايهتم بأحد ولايعنى
به أحد ، ويسطع عليه نور وحشى لا ادراك فيه •

وارتقى درجات السلم الى رصيف المحطة ، وفى
جوفه فراغ متداعى الجنبات ، والأرصفة خاوية تمتد
بينها القضبان آتية من أبعاد سحيقة ، فى خطوطها
الرفيعة المتجاورة المتشابكة ، بين تيه من الأعمدة
والاشارات • والقطارات فى الباحة تحت سماء الليل
الباهت ، ساكنة صامتة مظلمة ، كحشرات ميتة بيضاء
مفبرة البياض منسية ، والقطارات ملتصقة بالأرصفة ،
عليها تراب الليل تحت السقف الزجاجى المسود من
الهباب ، والمحطة كلها ساكنة نائمة ، وقد هدأت فيها
الحركة هدوءا غريبا ، ساعاتها تحقق اليه بعقاربها التى
توقفت ، والأسوار الحديدية القصيرة تحيط به ، وصوت
حشرة ليلية يتردد صغيرا من أحواض الزهر الغامضة فى
الليل ، تحت السور الحجرى القديم ، وجرس الترام
يرن بعيدا من شارع المحطة فى الخارج ، كأنه يسير

وحده بلا ركاب فى شوارع مدينة آقمرت من كل ساكنيها .

وأحس نفسه محبوسا ، مخنوقا ، مضيقا عليه .

يجب أن يقلت اذن ، يجب أن يخرج ، يجب أن ينطلق من بين هذه القضبان ، يجب أن ينتزع نفسه من تحت هذا السقف الزجاجي ، ومن نظرات هذه الساعات الواقفة ، يجب أن يخلص نفسه ، أن يخرج من الباب .

واندفع يجرى بالرغم منه ، لا يملك نفسه ، صغيرا فى هذا الفراغ الليلي ، نحو باب الرصيف .

وجابه على الباب الصغير ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، من عمال المحطة جالسين ينظرون اليه فى هدوء متربص ، يسدون عليه المخرج ينتظرون منه تذكرة السفر . فلن يخرج الا ومعه التذكرة .

وهبط قلبه فى حفرة لا قرار لها ، وقد تيقن دفعة واحدة أن ليس لديه هذه التذكرة . لن يخرج اذن ، لن يستطيع الخلاص . فليس لديه تذكرة . وهذه الوجوه الخشنة الغليظة القرية تحديق اليه بعيونها المدورة الجاحظة ، وغضونها الجافة السمراء ، وكلهم لم يحلقوا ذقونهم هذه الشائكة . هذه الوجوه لايهمها من هو ،

ولا تعرفه ولا يعنيتها شيء إلا أن تنال التذكرة • وحللهم
الرسمية السوداء - ولعلها زرقاء قاتمة - تصطف عليها
أزرار نحاسية كابية ، كأنها صفوف أخرى من العيون
المعدنية تنظر إليه ، وتنتظر •

وقفل راجعا يجرى ، يجرى كأن حياته كلها فى
خطر ، كل لحظة يقضيها الآن فى المحطة تزيد من هول
جريمته ، تثبت ادانته ، وتقرب لحظة الحكم عليه ، لن
يفتفر له ، لن يفتفر له أن ليس لديه تذكرة • يجب أن
يهرب ، يجب أن يفلت ، الآن •

وهو يجرى كما لم يجر أبدا فى حياته ، والمحطة
واسعة فسيحة خاوية ، ليس فيها شيء عداه ، يحاول
الافلات بنفسه ، والأرصفة تمتد تحت قدميه ، كأنها
تتخلق وتتمدد خاصة له ، كأنها طريق لم يوجد إلا لأنه
يجرى عليه ، بل هى توجد من لحظة الى لحظة ، تحت
قدميه • وفى كل اتجاه يندفع اليه يجد نفسه على نفس
الرصيف الضيق ، ونفس القضبان تحت الرصيف ،
ونفس الأرصفة الأخرى تحاذيه ، أينما اتجه ، تتمدد
حواليه • واذ يقترب من باب الدرجة الأولى ، وقد بدا
له من بعيد خاليا ، يجد أمامه نفس الوجوه ، نفس
العيون تحديق اليه ، تنتظره ، فى غير اهتمام كبير ، ولكن

فى تصميم ، لن يخرج أبدا الا اذا قدم التذكرة ، أبدا •
وليس معه تذكرة -

وهذه الحمى من الجرى لاتنتهى ، وقدماء المندفعتان
أبدا الى الأمام ، تحملانه مرة أخرى الى رصيف الدرجة
الأولى ، وهو يتعثر ، ولكنه يطير فى جريه ، كأن هذا
الحجر الذى يكاد يتعثر به قد تطاير تحت قدميه فجأة ،
ولم يعد فيه عائق ما ، كأنه قد اخترقه دون عناء •
ويصل أخيرا ينهج ، ويمسك بالسور الحديدى القصير ،
وعيناه معلقتان بتلك الوجوه على الباب ، ويتعلق
بحاجزه الرقيق المهتز ، يتعلق به كأنه لن يفلقه قط ،
فى عنف واصرار ، ويداه قد تشبثتا بالحديد الهزيل ،
واندمجتا فيه ، وأصبحتا قطعة منه لاتنفصل عنه • وهو
يعدق الى ساحة المحطة الخارجية ، لكنه لن يستطيع أن
يتجاوز هذا السور ، وهذه الوجوه قد اتجهت اليه ،
صامته فاهمة تنظر اليه من غضونها الخشنة ، بدقون
غير حليقة كامدة الزرقة ، شائكة •

وأحس القطار يصفر وقد وصل من رحلة بعيدة ،
والأنوار فرحة بهيجة قد غمرت المحطة كلها ، والساعات
تدور ، والناس يتدافعون ويتزاحمون فى انفعال
الوصول ، وهو يتعلق بيد أمه ينزل من القطار فى

زحمة الناس ، ويرفع اليها وجهه وقد تعب من رحلته ،
وهاجه وأسعده انتهاؤها . وأبنية المحطة الكبيرة عالية
تتجاوب بطنين الكلام والضحكات وصفير القطار وقلقلة
العجلات ، ويسمع صيحات الشياطين وجريهم بين الناس
فى الزحمة ، وأبواق التاكسيات تملأ الساحة الخارجية
الفسيحة بلجاجة ندائها ، والحناطير تتقارب وتتزاحم
وتقطع الطريق أمام بعضها البعض ، والساحة الممتلئة
بالناس الخارجين تسبح فى الضوء الباهر المريح بعد
شحوب القطار .

وتلفت خلفه فجأة ، وقد تقبض حلقه من المفاجأة ،
والخوف . لقد ضاع ، تاه . وهو لا يجد أمه الى جانبه .
لقد فقدوها فى الزحمة . والناس يخرجون متتابعين ،
سيل لا ينقطع من الناس الغرباء . وهو وحيد صغير .
لا يعرف الطريق الى البيت . لا يعرف الشارع . لن يصل
أبدا الى البيت . لن يجد أمه ولا أخواته .

ورجع جاريا يتخبط فى سيقان الناس المندفعين
الى الخارج ، ويتفلت من بينهم . وقد أخرسته المفاجأة
ولم يستطع أن يصرخ . وهو يريد أن ينادى . أن
يزعق . أن يجده أحد . أن يجد أحدا . لكن أحدا
لا يصفى اليه . أحدا لا يعرفه . وهو لا يعرف أحدا . وقد

ضاعت منه أمه • فقدتها • ولن يعرف الطريق أبدا •
سيتوه الى الأبد فى هذه المدينة الرهيبة الغامضة التى
توجد خارج المحطة • سيتوه بين الترام والعربات
والسيارات والناس • ستتخبط به الشوارع الطويلة
المخيفة التى لايعرف أسماءها • ستتوالى عليه جدران
البيوت • كلها غريبة • كلها صامتة • كلها مجهولة •
ولن يعرف بيته أبدا •

وكم هو ضئيل فى زحمة كل هؤلاء الناس • صغير •
تائه •

وأحس العرق السخن يغطى وجهه ، ويد الخوف
تمتد الى داخل صدره وتقبض على قلبه ، والضياح
يحدق بنفسه الطفلة • وقد فقد كل شئ •

وهو يجرى متخبطا بالناس لايرى شيئا من خلال
الدموع السخنة التى تملأ عينيه • وهو لايعرف ان كان
يصرخ فعلا فانه لايسمع شيئا • لكنه يحس نفسه يصرخ
مناديا أمه • ويضيع صوته فى دبذبة الأرجل التى
لا تنتهى ، متتابعة خارجة من المحطة ، ليس بينها أحد
يتعرف عليه • يحس نفسه يصرخ بملء روجه المتطلبة
حبها المفقود ، يدعو يدا تمتد اليه بالأمن والألفة ،

يصرخ مناديا من وحشة الضياع المقفر الذي يحيط به
فى امتدادات معتمة لا آخر لها • وينهج من الجرى
والرهبة والبحث عن الخلاص • يصرخ ولا يعرف هل
يسمع صرخته أحد ، بين كل هؤلاء الناس • يجرى فى
وحشة الضياع • لا يفتأ ينادى •

(٢)

كانت دقات القطار الرتيبة قد آتخت نفسه • كل
شي قد انحصر الآن فى هذه العربة التى تهدر وتهتز •
أموج ضجيج القطار الآلية تصطدم وتتقلب فى ايقاع
رتيب محسوب تحكمه قوة غير عقلية • دقات من كتل
الصوت الصلبة ترتطم بأجسام الصخور الناعمة الرملية •
والعربة المكتظة بالناس معصورة بين ضربات الحديد
المتشابكة تعجنها وتفوص فى لحمها وتدفعها دون أن
تهن ، فى هديد الصدمات المتقاطعة المتراوحة ، أبدا
الى الامام •

تململ فى الزحمة ، وضغط براحة يده المبسوطة
على زجاج النافذة المغسول بماء آثار تراب جاف وذرات
رمال بيضاء مغبرة فى الأركان • وقاومه الزجاج ،

لا ينزلق فى مجراه الخشن الصدىء ، ثم أفلت منه فجأة
ينزل . ووقع ، سكين مثلومة تهوى الى قاع قلبه فى خبطة
مكتومة . واندفع الهواء الحار ، وصفا سطح السماء
المعدنية التى تطبق على الأفق ، ودار القطار أمامه فى
انحناء ضيقة ، جلجلة عجالاته ثرثرة دؤوب مختلطة
الحوار ، مصممة ، لاتنقطع ، فى الصمت الخارجى ، على
قضبان هشة رقيقة ممدودة كالاسلاك ، فوق الجسر
المرتفع . أثر جرح متورم على خد الصحراء الجاف .

استدار ، يتعثر فى السبت المملوء المقبب المغطى
بملاءة سرير غير نظيفة مربوطة بعجل غسيل مشعث ،
وخوص السبت يحز فى ساقيه اللتين لاتستقيمان من
ضيق المكان . وعندما أسقط جسمه ، محشورا ،
ليجلس ، كان جاره قد استراح قليلا فى جلسته ، وأتاح
لعظامه العجوز أن تنفرد قليلا تحت جلبابه الابيض
الفضفاض الذى يسف طرفه تراب أرضية العربة ، فلم
يكذ يستطيع أن ينزلق على ألواح خشب مقعدة حتى
أوشكت كتفه أن تحتك بالوجه العظمى الشيخ الذى
تهدل جلده فى طيات مستسلمة ، ولكن عنيدة ،
وصلية .

ـ خد راحتك يا بنى • لامؤاخذة آدى انت شايف ،
نستحمل بعض ساعة زمن •

كانت العينان الترايبتان المحفورتان مثبتتين عليه ،
ابرتين طويلتين ، مغروزتين فى عريه النىء الخام ،
تأتى من ورائهما عينان أخريان ، كأنهما هما مرة
أخرى ، من وجه حفيد الشيخ الذى يلتصق به ، فى
كره ، على خشب المقعد ، هو حفيده بلاشك : خطوط
الوجه نفسها ، فجة ، بريئة ، لم تقع عليها بعد صدمات
تلين من بدائيتها الأولية أو تقسيها ، ولكن هاتين
العينين فيهما رفض ، لا مبالاة ، أو استهتار • والولد
قد اتسخت فأنلته المقورة القصيرة الكمين ، وأمسك
بعذائه ، من غير شراب ، فى يده ، ووضع رجليه
الهزيلتين ، احدهما تحت الأخرى ، على خشب المقعد ،
قائمى طائر «أبيس» مرميتين بعيدا عن الماء ، فى
لباسه الطويل البفتة الذى يصل الى الركبتين • هذه
ملابس الرياضة فى مدرسته ، وزينته فى السفر
والفسحة والعيد والمناسبات ؟

أحس العرق الخفيف على وجهه يسفحه هواء الغروب
الذى يهبط من السماء على الصحراء الخالية •
فى صدره الحجر المشع الساطع ، نجمة الصلب

الشفاف ، يقطع الظلمة فى داخله بألف سكين باردة
كالبلسم • فى بؤرته المتقدة مركز ثقل الكون ، سر
التوازن والعقل • حوله مدار الحلقة المتوهجة التى تغنى
فيها موسيقى فلكية •

ووحل ذهنه فى حسابات الحلقة ، دون أن ينتبه
لتغير مراكز الثقل فى وعيه ، واجراءات العقد ،
ومصاريف علب الملبس ، وارسال آخر بطاقات الدعوة ،
وترتيبات العشاء والسهرة •

ويدها الرخصة السمرء الطويلة الأصابع عصفور
وديع ، ودقيق ، وسخن ، يحس رجفات نبضه بالخوف ،
يكاد يكون عاريا ، فى يده •

الصبح استلم الدبلتين الذهب من الجواهرجى ،
وبارك له الرجل بابتسامة زيتية غائبة •

كان منقوشا عليهما التاريخ • غدا يبدأ دوران
الكون بعد جمود وقفة لا تاريخ لها •

من على البعد مراوح الآبار تدور على أبراجها
المخروطية العالية الرقيقة الاسلاك ، تشق لنفسها دوائر
فى الزرقة الصدئة • وتحتها بيوت من حجر أبيض.
مكسورة الجدران ، وخيام الاعراب الواطئة مطبقة على

الارض ، قاتمة بقذارة عتيقة ، ممزقة مرتوقة بألف
رتق ، وشجيرات التين القميئة الناصلة الترايية تتناثر
فى أرض صفراء كايية مضلعة بأحجار غير منتظمة
ورمل متصلب .

وعندما استدار القطار من جديد ، تشبث ثلاثة
أو أربعة جنود ، ينامون على أرفف العفش العلوية ،
بالحافة الخشبية ، بحركة غير مقصودة فى نومهم ،
استندوا رؤوسهم الحليقة الى أيديهم المكومة ، وأحذيتهم
السوداء الضخمة ، عليها طبقة رمل باهتة ، تكاد تصطدم
بسقف العربة ، بين القف والحقائب واللف والصرر
والسلال - المصابيح فى السقف عيون حافظة ، زرقاء
متورمة منطفئة ، تسيل نورها الشحيح على النباتات
الانسانية المصوحة ، تحت جفاف الرمل الكايبى ، فى
حبس مشتل ساخن معدنى يصطفق بدق مثابر عنيد .

ارتفع ، فوق ضجة العجلات التى لاتهدأ ، صراخ
طفل ، محرق لاينقطع ، من المقعد المواجه . والمرأة
لاتنى تردد بصوت آلى ، متعب ، كأنها لاتلقى بالالا لما
تقول ولا تعلق عليه أملا ولا تنتظر نتيجة : طب بس
ياواد اسكت بقى طب بس ياواد اسكت بقى ، بملابسها
السوداء الضافية ، النازلة حتى حذائها الرجالى ،

وشعرها المغسول الاسود تحت المدورة الزرقاء ، ووجهها
النحيل الصافى ، وهى تنظر اليه ، تقيسه وتزنه وتبلو
معدنه ، برغبة حادة مباشرة ، بلا استعطاف ولا غواية ،
فى داخل خرافة خاصة بها لاتحقق لها .

ومازال الافندى أبو جاكته وجلابية ، حتى فى
نور المغرب المتهافت الخابى ، يحسب ويضرب ويجمع
ويطرح ، فى مذكرته الصغيرة ، ويبل طرف القلم
الكوبيا بلسانه ، بحركة محتاطة تكاد تكون مرفهة
متشامخة ، ويتمتم بأرقام محدودة العدد ولكن لانهاية
لها فيما يبدو ، لاشأن له بأحد ولا بشيء فى كابوسه
الضيق الخاص المحسوب .

والست المترهلة اللحم ، أم فستان مشجر وطريحة
مقموطة على جبهتها المدورة العرقانة ، تمص حبوب
اليوسفندى بشفتين مطبقتين شرهتين ، وتلقى بالقشرة
الى الأرض وعلى اللفف والسلال ، وتقذف بالبذور من
فمها الباهت المسدود ، فيقع متناثرا على ملابس الناس
وأرجلهم وعلى الشنط والمراتب المدورة المحزومة
بالحبال والدوبارة .

من ورائه والى جانبيه وحواليه الوجوه التى
خدرتها ضجة السفر ، والعيون المطاردة الهاربة الى

كهوف معاجرها ، والافواه الفياغرة تتثائب بلا خجل
وتنطبق ، والعظام الحادة المرهفة المفاصل ، واللحم
المنكفىء على طياته تحت الجلايب والعمم والشيلان
والطواقى والقمصان الامريكاني المخططة والملونة
والبنطلونات الرمادى والكاكى المتهدلة ورائحة الحصار
والرمال الجافة ووحشة مغيب الشمس . وهو غارق فى
هذا الموج منهم ، ليس طعلبا بل جذوره ضاربة فى
صخرهم ، لا انتزاع لها .

هى ساعة زمن ونصل . أبدا ، مازال أمامنا سفر
لا ينتهى .

عندما أفلتت عيناه من أسر العربة التى تفص
بحياتها الكثيفة المتخثرة كان القطار قد دخل الى حيث
دفنت الشمس نفسها وراء امتدادات الملح الجاف الفضى،
والقضببان أمامه تشق الفراغ : خيطين معدنيين على
صفحة مياه قليلة الغور ، بها أمواج صغيرة متلاحقة هى
رصاص بارد ذائب يترقرق الهواء قليلا فى قوامه
الثقيل . وينبسط الماء ، بعيدا الى الجانبين ، تحت
عجلات العربات الحديدية المندفعة فى صخبها المصمت
المتلاطم يدق نفسه بلا هوادة . أحراش البوص الكثيفة

تفوص شيئا فشيئا فى الطين القريب تحت طبقة الماء
المعدنى الراكد المتعفن ، وتهب عليه الرائحة •

رائحة التحلل النباتى العتيق الزخم ، عضوية ،
فاسدة ، عطنة ، خمت بها أنفاسه ، ترفضها وتنشقها
رغما عنك ، تأتى من تحت جلد الطحلب الأخضر المجعد ،
جلد امرأة عجوز متصابية ، مدهون بزيت زنج ، تلبدت
طياته فوق سيولة الماء القليلة تنكسر طبقته هنا ،
هنا ، وهناك ، فيلوح تحتها الماء الساكن والطين
الرخراخ ، ثم تتجمع ، تحت جدار العربة المنطلقة ، فى
دغلات ملتفة شرسة ضاغطة من الحضرة القاتمة الزلقة
الملمس • والرائحة تعنف به ، وتفوح فى سطوع عفتها
الذى لا يطاق ، من تحت عجينة الطين المشبعة بنضج
الدسم ، من تحلل المخلفات العضوية ، طوال أزمان
سحيقة • تضرب فيها الشمس ويتخللها الماء وينصب فيها
لحم النبات الأخضر يموت على مهل فى قبوره المائية
المفتوحة ، وتتراكم جثثه الفاسدة واحدة فوق الأخرى
وتتكدر ، مكشوفة بديئة ، تنفث عطنها الكثيف
بلا نهاية ، من تحت مرآة مائية مغضنة الأسارير تعكس
صخر السماء البرونزية •

— يوه • • ماتقفلوا الشباك ده ياخواتى !

هذه المرأة الأم كأنها قطة بعينيها الحادثين اللتين
تعرفان ألا وفاء لشهوتها أبدا ، ألا اخاء لابنتها قط .

وضحك الشيخ عن قم ككهف لحمى قاتم الحمرة ،
وهو يهز ذراعه الضاوية فى الكم الأبيض الفضفاض .

— معها حج يابنى . . يالطيف !

ووقف مرة أخرى ، يقبض على الحافة الخشبية
السوداء من دسامة قديمة جفت وتصلبت وتركتها أيد
كثيرة ناضجة فى شهوة القبض والتصرف ، ويجهد أن
يرفع زجاج النافذة من مخبئه فيستعصى عليه ، أمكلف
هو برعاية الفتحة التى ينصب منها العالم الشرس على
سكان هذه العربية ؟ من كلفه ؟ ولماذا ؟

ومن وراء الزجاج المسدود بدا له ظل القطار
بمرباته القليلة ، وقد أضاءت مصابيعه الزرقاء ،
ينعكس غائرا ، مهتز الانوار ، فى عمق المياه التى لم
يعد لها فى العتمة غور مستبين ، وقوارب الصيادين
الرفيعة المستدقة الاطراف ، مهجورة ، بالية ، خشبها
مفكك عارى الألياف ، مائلة وراقدة على الطين القريب
بين رقرقة طبقة الماء النحيلة المتخثرة بالفساد . وفى آخر
مجد نور المغيب أخذت تتوالى ، تحت عينيه المجهدين ،

نباتات ورد النيل الخضراء اليانعة ، تحت القضببان
الحديدية ، وسط موجة واحدة رحراح من المياه الممتدة *
والنباتات الكثة تلمع غضة ، زيتية ، ملفوفة ، ساطعة
بنور دسم مشع كثيف ، وحشية بصمت ، تستمد حياتها
الضارية من العفن المتخثر * كانت العربية مغلقة على
زرقة أنوارها المتهاففة ، والمساء يزحف من الخارج ،
نمرا بلا صوت ، فى رائحته بقية عطن متراخ
مستريح *

عينها السوداءوان بثر ماء حلوة بلا قرار ، لايعرف
سرها * ترتفعان اليه من ضجيج دقات الآلات الكاتبة
ورنين التليفونات وصخب المكاتب الملهوف السريع
وحفيف الأقدام والأوراق فى ممرات الشركة ومسالكتها
المفتوحة ومنصات الرخامية اللامعة وحواجزها
الزجاجية ، بينما هو فى صحرائه الفسيحة المفلقة عليه ،
شعرها جدائل نخلة سامقة ناحلة الرشاقة ناعمة الجذع ،
وفى صدره الماسة الباردة تومض بنارها المحبوسة
داخلها ، أبدا ، الحجر الرقيق يسطع باستمرار فى نواة
ليله * غدا لن تنطفىء شمس الماسة *

ومرة أخرى عاد الى الجلوس فى مقعده الذى زحمه
الشيخ ، وقد اتجهت عيناه بصمت جامد الى المرأة

أمامه ، وصراخ اينها يأتى . محرقا مايزال ، يملأ
ضجيج العربى ، ولكن مكتوما ، صادرا من بين جدران
جلدية مبطنة ، يحس اهتزازها فى داخله .

وتجمد فى جلسته ، لحظة ليست من الزمن ، وثبتت
عيناه الى ساقى الولد الناحلتين فى قم يمضغ رغيف ذرة
مبلولا ، القدمان الصغيرتان بما عليهما من تراب
الطريق ، تغيبان ، وتنطويان ، ويدها تمتد اليه من
جديد ، والصرخة نفسها مازالت محبوسة ، والرأس
الصغير ينطوى ويغيب فى الظلام ، لقمة وراء لقمة .
للعيش المرحرح المبلول صوت تكسر عظام الجمجمة
والضلوع ، تنطبق عليها شفتان جافتان جائعتان ، وقد
انحسر ثوبها الاسود عن فخذ سمراء ممصوفة ، فاجرة ،
تبدو للعينين كأنها سخنة الملمس ، فى رقعة عظمها
الحادة ، لا ينطفئ جوعها ، ومازالت تكرر فى صوت آلى
لا أمل فيه : طب بس ياواد ، اسكت بقى ، طب بس ،
والولد عيناه لاتفهمان ، والوجبة البديئة لاتفرغ ،
مازال الولد على فخذها العريانة يصرخ صرخته المحرقة
المتجددة ، فى طبقة واحدة لاتتغير ، منهوشا ممضوفا
بأسنان حانية ، لا مبالية فى حنانها ، بينما البقال ، أو
لعله القومسيونجى ، يحط حساباته المتصلة فى النوتة

الصغيرة ، ويتمتم ، بشفتين متحركتين لا تتوقفان ،
بأرقام لا آخر لها ، والست المليئة أم طرحة مقموطة
قد غاصت عيناها الصغيرتان في عجين وجهها الباهت
المتخمر وانطبقت شفتاها في خط رفيع مصمم وان كان
لا أسنان وراءه .

مد يده في حركة كأنما تند على الرغم منه ، كأنما
يهم بأن يوقف هذا الذى يدور أمامه أو أن يشارك في
اقترافه ، ولا يباليه أحد : طعن هذه الوجبة الداعرة
الحنون ، والمعرمة والمحتومة مع ذلك . ولم تمتد يده ،
ولم يتوقف شيء .

الناس يتململون في حركة الاستعداد للوصول ،
ويقف البعض ويشقون طريقهم بصعوبة في العربة التى
تغمرها العتمة العكرة بنور مزرق شاحب ، وتثقلها
رواسب الليل القادم . والجنود ينزلون من على أرفف
العفش فتغوص الأحذية السوداء الضخمة وسط لحم
القفف وعظام الشنط الهشة اليابسة ، وترتفع قاماتهم
الكاكى الطويلة الناحلة ، فى الزحمة المضطربة العتمة ،
حتى السقف . والعربة مندفعة الى الامام فى دقائقها
الحديدية التى أخذت ايقاعا آخر ، أبطأ ، وهى ترتطم
بمياه الليل الساجية الثابتة القوام .

ومن وراء الزجاج تعاقبت أحراش البوص الأخيرة،
الداكنة الزرقة ، ومرتفعات الرمل فى وسط الماء عليها
عربات نقل بعيدة مقلوبة ، وبيوت صغيرة من حجر
أبيض مظلم ، ثم اختفت رقرقة الأمواج ، وانفسحت
الأرض ، وارتفع جسر رملى عليه حرس الاشجار التى
ترقب القطار يمر بينها بألف عين مهتزة الاهداب وألف
ذراع متهاوية متأرجحة ، وجاءت أعمدة السيمافور
العالية المسحوبة المتتالية ، تصطك ذراعها الواحدة
الصلبة لتسمح للقطار بالمرور ، وتبرق عينها الكهربائية
الواحدة بلونها الاخضر ، وتتشابك القضبان الحديدية
وتتعرج ، وتنشعب ، وفى العربية جو فرح وقلق ،
بانفكاك الحصار وانقطاع علاقة اضطرارية ، والأم
ترفع ابنها الى كتفها وترفع السبت بيدها الأخرى ،
والجد يقيم عظامه القوية العجوز وحفيده يلبس حذاءه
من غير شراب ويتسلل فى لدونة وراء جده ، والبقال
— أو القومسيونجى — يتشهد ويضع مذكرته فى جيب
جاكتته الداخلى ، أما هو فقد أنزل حقيبة شركة الطيران
القماشية الصغيرة وعليها الحروف اللاتينية البيضاء ،
ووقف فى الزحمة ينتظر • وأنوار المحطة تتخايل لهم
ثم تهجم عليهم ، واذا بهم فى وسط الدقات المحتضرة

العذبة الأخيرة ، والقطار يصفر ، مستنفدا ، تحت
السقف الزجاجي العالي ، وتتردد أصداء الوصول في
المحطة الفسيحة الصدر .

الطريق غامض أمامه ، ولكنه مفتوح .

عندما نزل من العربة كان سيل المسافرين قد
انحسر وتشربته البلد ، ووجد نفسه على الرصيف
الخارجي ، تحت سماء الليل . والقطار قد وقف ،
وغاضت منه حيويته وانطلاقة ، انكمش وجف ، قشرة
مفرغة هناك ، تحت السقف الزجاجي تهب عليه أنفاس
الليل ، والأرصعة المتوازية ، في خلاء المحطة المبهم ،
متعاقبة واحدا بعد الآخر ، تنتهي بانحدارات مائلة نحو
الزلط والحصى والرمل وبرك السولار السوداء اللامعة
الخبثية ، وعلى القضبان ، بين الأرصفة ، عربات نقل
البضائع الحديدية الفارغة ، مسطحة مكشوفة ، ملقية
بأذرعتها وأطرافها الناحلة الاسطوانية الى الأرض ،
وتحت الانوار الخافتة كشك بيع الصحف مسدود مغلق
يغطيه نصف اعلان سينما قديم مقطوع ، وبوفيه المحطة
بعيد جدا في أول الرصيف عند باب الخروج ، معزول ،
يسقط فيه نور أصفر باهت على مقاعد وموائد مصفوفة
بانتظام ، خاوية تماما ، عقيمة . ومكاتب المعاون

والناظر والبوليس والتليفون ، بأبوابها المتجاورة
المفتوحة ، كلها عيون معتمة ، على زجاجها قضبان معدنية
متقاطعة قائمة من بعيد . وقد جلس أمامها في نصف
العتمة ، عسكري ضخيم منتفخ في بدلته الصفراء
وأشرطته العريضة الداكنة الحمراء على كفه ، أسند
بندقيته على الكرسي ، وأدخل ذراعه تحت حمالتها ،
محنيا رأسه على صدره الذي يهبط ويرتفع بثقل .

الطريق مفتوح . ينزل من آخر الرصيف الى أرض
فناء المحطة ، ويعبر القضبان الى اليسار ، ويمر بين
أحواض الزروع والأزهار والشجيرات المدورة تحت
السور الحجري الأبيض ، فاذا نفذ من كسر في السور
خرج مباشرة الى الشارع الطويل المهجور الهادئ ،
بجانب المحطة . دقيقتين ويكون في شارع الرصافة
ومنه الى البيت ، بدلا من اللفة الطويلة من باب الخروج .
دقيقتين ويخلص .

وارتفعت يده الى جيبه الداخلى الى جانب صدره ،
ثم توقفت لحظة ، وقد سطع الرعب في نفسه ، وأثار
العالم كله بنور وحشي خاطف ، ثم انطلقا فجأة .
تجمد في وقفته على آخر الرصيف ، ووضع الحقيبة

على الأرض ، وامتدت يدها في حركة سريعة تبحثان في
جيوبه جميعا ، بالهفة ، وقد بدأ الجنون يزحف ويستأثر ،
لا يرد ، بيقين خفى لا يريد أن يعترف به ، بيأس كامل
ومنكور . لن يجده . يعرف . ضاع . لا . لا . لا . في
الحقيبة ؟ كيف يمكن ان يكون فيها ؟ لا . وانحنى ،
مع ذلك ، وقد غمر وجهه وصدره عرق بارد ، عيناه
نافذتان معتمتان من الصدمة ، والخوف ، ومضض القلق
الذى لا شفاء منه ، ويده تجوس في الحقيبة . لاشيء .
لا شيء . البيجاما ، عدة الحلاقة ، معجون الأسنان ،
الفوطة ، الفرشة ، الشبشب ، غيار . الكتاب . هذا كل
شيء . ولكن الخاتم . الخاتم . فقد . ضاع منه .
فقد .

كانت قضبان السكة الحديد تمتد ، بين الأرصفة ،
وتخرج الى الفناء الخارجى ، متشابكة ، متجاورة ،
متقاطعة ، لامعة فى عتمة الليل بلمعة رصاصية فتية ،
غضة وقاسية ، مدورة فى صلابتها ، اكتسبت قوة
مصقولة مشحونة بطاقة كامنة من اقتران العجلات
الضخمة معها ، ودورانها عليها ، وازدواجها بها ،
والخطوط الحديدية الملتصقة بالأرض ، الذاهبة على

وجهها الى ابعاد سحيقة تخرج بها من الزمن أيضا ،
تشتبك بتراب الارض وتدفن نفسها فيه ، فى عناق
أخطبوطى محكم لا افلات من قبضة حبه .

لا ، يجب أن يجده ، لابد ان يعثر عليه - بذرة
حياته نفسها فى قلب الحجر الشفاف المشع ، من غيرها
ثقب فى قلبه لا يمتلىء أبدا ، وفقد لا عوض له .

وانطلق يجرى ، مندفعاً فى سورة من العمى الباهر ،
لعله مازال هناك ، وقع منه عندما قام يفتح الشباك ،
أو يغلقة ، انحشر بين المقعد وحائط العريّة ، لعل
العجوز وجده وأخفاه ، أو المرأة سرقة ، أو داس عليه
الجنود وهشمته الأحذية السوداء الثقيلة ، أحالته فتاتا
من تراب أبيض كالمح الخشن الجارح الزوايا ، على
أرض العريّة ، بين قشر اليوسفندى ومصاصة القصب .
لا ، لا ، مازال هناك ، أخطأته العيون والأيدى والأحذية ،
مازالت صخرته الدقيقة تشع فى العتمة بوهجها البرىء
النقى النقى ، تنير الكون كله من مكنها ، غير مرئية ،
بين الحديد والخشب الأسود الكابى وعليه أن يجرى ،
الآن ، قبل أن يفوت الأوان ، يلحق بالقطار قبل أن
يرجع للمخزن أو يعود الى محطة القيام - وهو ينهج ،
اذ يقطع المحطة الليلية الخالية ، وقدماء تطيران به مع

دقات قلبه الشرسة التى تمسك بكيانه ، تعجنه وتهرسه
بضربات مطارق حديدية متشابكة • واندفع يعبر
القضبان ، ويطير الحصى الدقيق والزلط الأبيض تحت
قدميه ، ويثب فوق البرك الصغيرة السوداء ، بها حلقات
وموجات زيتية قاتمة الاخضرار ، من الشحم والزفت
المترسب بين القضبان وتحتها • وها هو ذا يجرى الى
جوار قطار طويل ، طويل ، لا ينتهى ، عرباته فارغة ،
موحشة ، متعاقبة ، جدرانها هامة ، شاحبة • بناء منيع
يوشك أن ينهدم فى أية لحظة ، ولكنه متماسك لا ثغرة
فيه ، لا ينال ، ولا ينتهى ، ليس هذا قطاره ، يريد أن
يدور حوله ، ولا يصل الى نهايته ، يريد أن يبلغ قطاره
الذى غادره منذ لحظة واحدة ، كأنها حدثت مع ذلك فى
عالم آخر انطوى تاريخه منذ أمد سحيق ، ولكن القطارات
كلها قد اشتبهت عليه ، بصمتها ، وتماثلها ، واتصالها
الذى لا ينقطع ، لا مبالية •

دار أخيرا حول آخر عربة من قطار واحد مشتبك
العربات ، ووثب يصعد الرصيف فى اندفاع لا جهد
فيها ، وخارقة ، وقلبه يملأ المحطة النائمة كلها بضربات
عناد لا ينهزم ، وانحدر مرة اخرى ، كأنما تحمله ايد
خفية ، يعبر آخر القضبان الى قطاره فى الرصيف

التالى ، هناك ، أمام عينيه ، فى متناول يديه ، وقد
انشعبت فى عينيه بروق متلاحقة فى لهفة حارة .
مازال قطاره واقفا حيث كان ، لحظة واحدة الآن ، لحظة
واحدة ويندفع الى عربته ، ويجد حبر خلاصه ، وصخرة
نوره .

اصطدمت قدماه وساقاه ، فى شبه العتمة ، تحت
سماء الليل ، بشئ طرى طيع ، على القضبان . وتعثر ،
ووقع الى الأمام دفعة واحدة .

وجد نفسه راقدًا على الأرض ، على وجهه ، منكفئًا
على القضبان الحديدية الطويلة ، ذراعا ممدودتان أمامه
على الزلط والحصى وحببات الرمل الكبيرة ، ينشق رائحتها
الترابية الخشنة ، ويحس لذع كشط حاد فى جانب
وجهه الأيمن ، وتحت ذقنه ، أطراف أصابعه مكدومة ،
وقد أذهلته السقطة المفاجئة وشلت وعيه ، لم يعد يحس
الا العرق المالح يتقطر على عينيه وقد تضخمت أمامهما
أحجار الزلط الصلبة الباهتة المعوجة القوام ، كأنه
لا يدري بعد ماذا حدث . وعندما عاد اليه الوعي ، بعد
خطفة زمن لا تكاد يحسب لها حساب ، وجد نفسه فى
هذا العالم السفلى ، بين حائطين شاهقين من أرصفة
المحطة ، على جانبيه ، وهو فى النفق المفتوح بينهما ،

كل شيء حاد ، وقاطع وشديد الوضوح • ولكنه لم يعرفه
من قبل قط. • كانت القضبان تحت عينيه ، قوية ويانة
الرسوخ فى ضلعها الواحد المستدير الممتد الى مالا نهاية ،
والزلط محبب ، مدور ، مكسر الحواف ، وحببات الرمل
خشنة ناتئة كالحجر المصعون • لكن وجهه – مع ذلك –
مدفون فى طيات شيء كاللحم البارد الرخص ، مألوف
وحميم وبشع يهز قلبه بقشعريرة مثلوجة ، لا يراه ،
وراحتا يديه تقعان على عضلات جسم مبتورة ومكتنزة
كأنها تنبض ، فى برودة ممتصة ، وتصد الحس تلصق به
وتشله وتميته •

انبثقت فى جسمه كله ، من الرعب ، شرارة كهربية
واحدة خاطفة ، ووجد نفسه واقفا ، ومس الصعقة
الكهربية المتوتر مازالت أصداؤه تتردد فى أطرافه كلها •
وقد وثب الى الخلف ، يحدق الى فراغ الأرض ، والقضبان
الصامتة المصقولة النظيفة ، والأرصقة ، تبدو له كلها
متينة ، عملية ، راسية •

لم يصدق • كان وحده فى المحطة الفارغة ، تحت
خواء سماء صدئة ، وأعمدة السيمافور منطفئة لاتشير
الى شيء ، والسقف الزجاجى الدافىء بعيد •

حس الاشلاء المبتورة المرمية على القضبان مازال
فى وجهه ويديه ، حس اللحم الانسانى المحظور والمحجوب
معا . البارد ، عضلات بطون وأطراف سيقان مدورة
وأذرع بضة متشابكة ، باردة ، باردة ، هامة ، لكن
فيها مع ذلك روع لا يخطئه القلب أبدا ، روع التلاصق
بأجساد ميتة ، بأجساد المحارم الميتة .

لم يحدث . لم يحدث شيء من هذا كله . غير
معقول . ماذا أصابه ؟ لا يعقل أن الصدمة قد أصابته
بهذا . الانتكار مع ذلك سطحي لا جدوى فيه .

فى عمق يقينه ، فى غور بعيد مثقوب فى دخيلته
صوت صغير لا اسكات له : نعم نعم . حدث .

القطار مازال واقفا ، باهتا ، نوافذه ، وأبوابه
فاغرة سوداء ، على الرصيف التالى ، قريبا جدا ،
ولا سبيل اليه .

نفض عن نفسه هذا الكايوس غير المعقول ، كما
ينفض حيوان برى عن جلده قطرات ماء غريب .
وأوشك أن يسخر من نفسه .

نعم ، سقطت ، هذا كل شيء . ماخيل الى أنه حدث

فى لحظة السقوط الخاطفة ، محض وهم من القلق
واللهفة والفقدان .

قدماء تصطدمان باللحم الطيع الممدد على القضبان.
والعرشة تثلجه مرة أخرى - وهو يخطو الى الخلف ،
ويتقدم . ويقع ، ويقوم ، مرة بعد مرة بلا انتهاء ، فى
عناد لا عقل فيه ، فى تصميم لم يعد يملك فيه من أمره
شيئا - يطيع ، فى عمى ، حافزا لا يرد ولا جهد ولا ارادة
فى طاعته - يرتطم وجهه ويداه وصدره ، مرة بعد
مرة ، بلا انتهاء ، بسور لا عبور منه ، من الاشلاء
النظيفة النقية الشاحبة ، كأنه يراها فى العتمة - لم
تعد هناك الا هذه الدورة المتكررة أبدا من الاتصال
بهذه الجثث والانفصال عنها ، جثث أخواته ، جثته ،
تتخايل له تحت السماء الفسيحة ، مقطعة ولكنها بريئة ،
انثالت عنها الدماء وانحسرت تماما ، وتركتها صافية
بيضاء ، هرستها عجالات القطارات الداهية الآيبة ،
شقتها طولا وعرضا على الرمل والحصى ، ومضت عنها .
نضت عنها كل أدران الحياة وأخلاطها ، مكومة ، فى
نسق غريب ، ونظام ، سيقان مبتورة - حادة البتر -
رؤوس مجزوزة كأنها سقطت من كلابات الخطاطيف ،
عيونها مازالت تترقرق فيها المياه ، يقظة ، أوصال

متراكمة بعضها فوق البعض مرتاحة في نوم الزمالة
الأخيرة ، محددة الجوانب والأضلاع ، انصببت منها ، منذ
زمن بعيد ، كل لزوجة الدماء ولوثاتها ، وبقيت طاهرة
مصفاة ، ناعمة ولينة ولكن متوفزة ومتماسكة ، تكاد
ترتجف بالنبض ، بقايا أجسام غضة من غير سوء ، كأن
فيها ، مازالت ، روحا محبوسة لا تريم ، لا تنهزم ،
أنفاسا تتردد في عمق خفي لا ينال ، تنتظر - فيها ،
مازالت ، حياة قاسية باردة ، لا تطالب بشيء ، لا تريد
شيئا ، لا تقول شيئا ، لكنها صارمة عبوس - لا تبرح
مقامها المثلوج - ستظل تعمده أبد الدهر ، تحت
العجلات ، وفي خواء الليل على السواء ، متجهمة في
اسارها الذي لا ينفك ، بادانة لا برء منها ، ولا تقويم
لها -

(٣)

أرصفة السكة الحديد تمتد ، متينة ومظلمة ،
متجاورة بلا نهاية • عريضة وخالية •

والسمااء المعتمدة فوقى شاسعة ومنفصلة . الليل الذى
فيها لا ينجاب • والنجوم ثابتة ، صغيرة ، لن تذوب فى
أى فجر •

أسأل نفسى لماذا هذا الخواء فى هذا العالم الذى ليس
لى غيره ولا أعرف كيف أخرج منه • لا أعرف أين
الباب • أعرف أنه لابد أن يكون هناك ، ولكنى لا أعرف
طريقا اليه ، أى طريق •

كأنتى خرجت من تحت سقف المحطة الزجاجى
العالى ، وكأن أمى وأخواتى البنات الأصغر منى قد خلت

منهن المحطة ، وتركننى وحدى • أتلفت حوالى ، تحت
ضبط اللهفة المحكوم الهادىء ، ولا أرى سور المحطة من
وراء الأرصفة المتكررة، رصيفا بعد رصيف، على يمينى
وعلى شمالى ، بلا آخر • القضبان الحديدية بينها ساقطة
على الأرض ، مدورة ، ملتوية ومستقيمة ، متشابكة
ومتوازية . عيناي تعرفان مدى صلابتها التى لا يمكن
أن تنكسر . شديدة اللمعان من فرط احتكاك العجلات
الدوارة بها ليل نهار . الأقراص الحديدية الهائلة التى
لا تقضم منها جذاذة ولا تصنع شرخا ، بل تزيد عنادا.
والقطارات الضخمة سوداء ، مربوطة بلا جدوى
بقاطراتها الهامدة ، لا أعرف من فيها •

يجب على أن أجد الشباك الذى أقطع منه تذكرتى •
شبابيك التذاكر حوالى من وراء قضبانها الوثيقة
المتقاربة ، منيرة ولكن مغلقة ، ليس فيها وجه ، ليس
فيها أمل • والوقت يفوت ، والساعات الكبيرة المدورة
الوجوه ممسوحة ليس فيها عقارب ، ولا أجد من أسأله .

كنت أعرف أن الباب هناك تحت ممر واسع ومرتفع
ودائرى العقد والهواء فيه نظيف ، فى وسط جدار
المحطة الداخلى السامق العريض الأحجار ، وانه مفلق
الضلفتين ، ومصنوع من الحديد الرقيق المشغول .

أطرافه المديبة على شكل السهام المرشوقة فى أعلاه ،
مطلية بالذهب ، ولا يفتح الا عندما يأتى الملك فى
قطاره الأبيض ذى الشرفات المزركشة . ويفرش البساط
الأحمر ويمتد تحت قدميه من عتبة القطار على طول
الرصيف وعبر الباب والممر العريض المنير حتى الساحة
الخارجية ، وتمتلئ المحطة بالجنود والزهور فى صفوف
وثيقة ومتلاصقة لا ينفذ منها شئ • ولا يقف عمال
الأبواب على رؤوس الأرصفة عند الحاجز الحديدى
المنخفض ، لا يثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدى
الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج ،
فلا يمكن أن تدخل أو تخرج الآن • مرة واحدة لمحته
من بعيد ، الملك ، من بين ظهور الجنود والناس الواقفين
بجلايبهم وطرايبشهم وعمائمهم وشيلانهم وربطات
العنق الرفيعة الضيقة الخناق ، ورأيت اهتزاز ذيل
« السموكنج » الطويل الذى يلبسه على جسسه الثقيل ،
غريبا على ساقيه الممتلئتين ، وجانبا من وجهه المحتقن
المزدحم بالدم ، وشاربه القوائم بدؤايتين رفيعتين
مشدودتين « بالكوزماتيك » المشمع • كان أبى يقبض
على يدى بقوة ، ونحن نخرج فى الزحام ، وأشم الرائحة
الحريفة من معطفه وسبائره ورجولته ، وهو يمسك

بعضاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقبض
الأبيض المحفور بزخرفة عرفت عندما كبرت أنها اسمه
« قلته فلتس » من العجاج المخروم . كان في ميدان
المحطة قره قول من تلاميذ المدرسة الحربية بالشريط
الأحمر الذى يشق البنطلون الداكن الضيق المستقيم
حتى تحت الحذاء الاستيك اللميع ، وبلوك من الجيش
البريطانى ، وموسيقى القرب الاسكتلندية بأصواتها
الثاقبة المملة ، والجونلات ذات الطيات المتعددة ، وقطرات
العرق تتفصد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها .
والموسيقى النحاسية تضرب بقرقعات بهيجة وإيقاع
واحد لا يتغير . وجندى قصير يحمل طبلاً ضخماً على
بطنه الكبير يدق عليه بانتظام دون توقف ، كأنه وحده
فى العالم .

جنود بلوك النظام ينزلون جريا من عربات الجيش
المربعة العمودية الجوانب ، على سلاسل قصيرة مثبتة فى
مؤخرة السيارات ، ويظاردوننا ، بقمصانهم الطويلة
المهدلة وسراويلهم التى تنزل تحت الركبة بقليل ،
وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف « الألشين » الكاكي
الرمادية التى ترتفع الى ما تحت الركبة بقليل . ونحن
نجرى فى ميدان المحطة الفسيح بين عربات الترام

الصفراء اللون التي توقفت ، واحدة بعد الأخرى ، على
خطوطها ، والناس ينظرون منها بفضول • وكان تلاميذ
المرقسية ورأس التين قد انضموا إلينا • وكنت أهتف ،
ولا أسمع صوتي : تحيا فلسطين • يسقط وعد بلفور •
الاستقلال التام • • حملت العلم يا عبد الحكم .. الشمس
حارة في دمائنا ونحن نجرى • والشتائم البذيئة من
العساكر تلاحقنا ، والعصى القصيرة في أيديهم • وكانت
الشتائم موجهة جدا • والغضب يلف العالم ، ولا ينباب
أبدا •

كان الجدار الخارجى الجانبي للمحطة ، أمام باب
الدرجة الأولى ، يرتفع حتى الشارع العلوى تتخطى عليه
عربات الحنطور التى تبدو صغيرة ، وأجراسها دقيقة
مصلصلة الصوت ، فوانيسها النحاسية الأمامية
بزجاجها المصقول المكعب السطوح ، كأنه معمول من
ماس كثيف ونقى ، تحبس شعلات صغيرة صفراء محمرة
تتقد فى النهار • وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق
له موسيقى رشيقة • وكنت أنظر الى اعلانات « شركة
الادرياتيك وتريستا للسفريات والملاحة » ، والباخرة
تمخر مياه الحلم المتموجة بزرقة فاتحة الصبغة ، دون أن
تتحرك ، مستقيمة الخطوط وهفافة الريح فى وقت

معا ، ثابتة فى سرعتها الساكنة التى لا زمن فيها ،
ونوافذها ، فى البطن المسطح ، بصفحته المستوية ،
فتحات كاملة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم
الشفافية .

كنت أرقب « الديبور » الذى صنعته من ورق
كراسات المدرسة ، مديبا أبيض حاد المقدمة ، أشد
طيرانه بالخيوط الطائر فى السماء ، بحزم ورفق ، فوق
رؤوس النخل ، وأنا على سطح بيتنا فى غيط العنب .
وقلت لنفسى بفرح اننى عندما أكبر جدا ، وأصبح فى
العشرين ، سوف أسافر فى بعثة ، كما سافر رفاعة رافع
الطهطاوى ، الى مارسيليا ، وأركب البحر على باخرة
شركة الادرياتيك وتريستا ، وأعرف فنون الحرية فى
باريس كما لم يعرفها أحد فى مصر قط . وكنت أعرف
اننى لم أركب هذا البحر ، ولم أخطر عباب هذه الحرية .
وأن القلب الطفلى مازال يطفو فوق أحلامه القديمة وان
كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة .

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة ،
كسلالم الحريق لأقدامى عليها رنين معدنى . سياجه
الدائرى يهبط معى الى دور سفلى فى المحطة معقدة
المسالك ، خاويا أيضا ، متكرر الأرضفة ، أيضا .

بلا نهاية • والسماء نفسها فوقى ، وفوق الأرضفة
العلوية الأخرى ، منفصلة لا تزال ، لا يهب فيها
النسيم •

وأجد أمامى المصعد الكبير الذى ينزلق على بابه
الحديدى المصمت ، بهدوء وثقة فى مجراه المحفور ،
ويصطك بالجدار المعدنى بصوت ثقیل نهائى • وفى
الهبوط البطيء أحبس فى قلبى الروع الذى يريد أن
ينفجر • هذا الباب لن يفتح على قط • لن يسمع أحد
صوتى عندما أنادى النجدة • لن ينجدنى العالم •

وتسكت حركة المصعد الفسيح ، وتمر ثانية واحدة ،
كانها لن تمر ، من الصمت التام • الباب مغلق ،
لا ينبض •

ثم يرتعش الباب ببطء ، على الرغم منه ، وينزلق
مفتوحا •

وأفلت منه كأنما خرجت من قبر ذى أصداء ، مضىء
بمصباح كهربى مدور تتعلق به شبكة أسطوانية من
الأسلاك الحديدية عليها سحابة ضعيفة الحركة من
الهاموش •

وتمتد أمامى الأرضفة المتكررة المفتوحة مرة أخرى :
وتزداد السماء وليلها الملتبس ابتعادا . الأدوار العلوية ،
دورا فوق دور ، مدكات شاهقة من الاسمنت مغلفة
بأحجار البازلت اللامعة •

لا أريد الاستسلام للفرع الذى فى ساقى ، ولا أريد
أن أجرى فى شوط لا أعرف له وجهة ولا نهاية • أرفض
اليقين الذى فى جسمى بأننى ضللت الى الأبد بين هذه
الامتدادات الشاسعة من الأرضفة المتعاقبة والمتقاطعة
والمتراكبة ، بين أسوار البازلت الشاهقة ، ترتفع عليها
مصاعد البضاعة الهائلة وتسقط مغلقة الأبواب •

العناد ، كاليأس ، لا ينكسر •

صفارة القطار تنطلق فجأة فى الصمت المعتم
الرحيب التى تقطعه مصابيح عالية صغيرة • ويتردد
لهذا الصوت الوحيد صدى أجوف الصدر ، يصططم
بالسقف الزجاجى المحذب البعيد ، قضبانه العلوية
المتشابكة فى نسق هندسى رقيق التصميم ، تبدو
مفصلاتها القوية العضل هشة وحساسة أمام عيني
المرفوعتين •

والقطار يتخم نفسى ، أخيرا ، بدقاته الرتيبة ، مرة
أخرى ، كأنها دائما هى المرة الأولى . وهو ينطلق فى نور

الظهر القاسى ، بايقاعه المتراوح الذى يتضخم وينفجر
فى خبطة مكتومة ثم يهبط - يتضخم ، ويمتلئ ويقرقع
فى هدة مكبوحة ، ثم يخفت - هزيمه المتصل المتناوب
الصدمات يصطقق فى داخلى ، دون هوادة ، فى عزم ليس
له انقطاع .

أسأل نفسى السؤال الممزق ، وأنا صامت ، جامد
الجوارح : أين يقف هذا القطار ؟ واذا وقف ، فكيف
أعرف انها محطتى ؟

ايقاع دقات العجلات على القطار ، منتظما ،
لا يفرغ ، وطنين المحرك المليء بالقوة لا يبالي شيئا ، هو
صمت خاص .

الزجاج المحكم على السخونة الهفافة فى العربية
المكيفة الهواء يبدو منيئا ، لا يخرق .

وكأنما على الرغم منى ارتفعت يدي ، لا أملك لها
ردا ، تبحث وتتلمس بلهفة مضغوطة متطلبة - يدي
تريد أن تجد مقبضا أمسك به ، مفتاحا أديره ، زرا
كهريا أضغط عليه ، حلقة معدنية أجذبها ، أريد أن
أفتح الزجاج ، أنشق الهواء البارد الذى أراه يهز أشجار
الفيضان وعيدان الذرة ، أعرف نسمته المتربة المحيية .
لا ينال .

جدار القطار المعدني منبسطا وناعما ، ليس فيه
أدنى خدش ولا نتوء ، لا يقطع سطحه المصمت شيء .
والستائر الكريتون الصفراء بلون المستردة الغامق
تنسدل على جانبي الزجاج بريئة ، بيتية ، أحس فيها مع
ذلك قصدا خبيثا ، وهي مصنوعة بمكر وأناقة متكررة ،
كلها متطابقة .

ترتفع يدي مرة بعد مرة ، بارادة خاصة ، أكابد
الحيرة التي لا تنقضي . وأجاهد حتى لا تبدو على هذه
المكابدة الوحيدة ، فأسترق النظر الى الركاب الصامتين ،
كل منهم وحده أيضا . حتى الأزواج والرفقاء ،
متفارقين . وأعرف أنهم يسترقون النظر ، في أعينهم
اتهام غير معلن ، مترصد ، هل ينتظرون اللحظة التي
يفصحون فيها عن شيء كالاثم قد اقترفته ، لا أعرف
ما كنهه ، لكنني أعرف أنه هناك ؟ وأفاجيء نفسي
بالسخرية من نفسي : تظن نفسك من أصحاب الآثام ،
وتظن ذلك بطولة مقلوبة على وجهها ، من غير شريك ؟
والشركة في الاثم لا هي تبرئك ولا هي تمجداك .

وقلت لنفسي ليس بين هؤلاء الذين يركبون معي من
يشير الاهتمام .

هذه المجموعة المعتادة من ركاب « الديزل » الدرجة الثانية المكيف : أواسط كبار الموظفين بعيونهم المتورمة وذقونهم المتهدلة اللحم وحقائبهم « السمسونايت » الأصلية والمقلدة التي تحمل أوراق الإدارة أو الشركة أو تصميمات المشروعات المربحة للجميع ، وضباط الجيش الشبان ، والذين ليسوا شبانا جدا ، بملابسهم الكاكي المكوية وقد خلعوا الكاب ووضعوه على الرف العلوي المزدهم بحقائب جديدة صغيرة ومتوسطة وبأكياس النايلون المنبعجة بما فيها ، والزوجات - أو غير الزوجات - المنهكات جفت النيران الوجيزة التي عرفنها بسرعة ، مكحولات ومصقولات الحدود وشفاهن داكنة الاحمرار بالماكياج المستورد ، صدورهن المشدودة لم تعد لها جدوى ، والمقاولون ، والسماسرة والتجار ورجال الوكالات وشركات التصدير وخصوصا الاستيراد ، لا تخطئهم العين ، ملابسهم غالية ولكنها مازالت توحى بالجلباب الحرير والقفطان الشاهي والمعطف البلدي ، عيونهم صلبة ومعدنية • وقلت لنفسي لا ، لا يهتمونني ، لست منهم • وأعرف أنني لا أختلف عنهم في شيء • ولعلمهم يعرفون أنني معهم • وقلت لنفسي لا ، لست منهم ، لست أنا • ثم قلت لنفسي ومع ذلك فأنت هنا ،

معهم ، فى قطار واحد ، وعربة مكيفة الهواء واحدة ،
وسوف ينتهى القطار بنا جميعا الى محطة واحدة •
ويداى تحترقان فجأة برغبة لا جدوى منها فى أن أجد
مفتاحا يشق انسداد هذا الزجاج المفلق على وعليهم •
ورأيت فأس الحريق الحمراء الصغيرة ، فى صندوق
زجاجى مفلق باطار معدنى من الالومنيوم الثقيل ومعها
تعليمات مطبوعة عن كيفية استخدامها عند اندلاع
النار • أين رأيت هذه الفأس ؟

هل يمنعونى من النزول عندما تأتى محطتى ؟
وما محطتى ؟ هل يعرفون اننى ليس معى تذكرة ، يعنى
أنه لا مكان لى هنا ، فى حقيقة الأمر ؟ وهل هذا
صحيح ؟ لا أذكر هل اشتريت تذكرة ، ولا أريد أن
أبحث عنها الآن فى جيوبى ، فى المحفظة ، بين صفحات
مذكرة الجيب ، لا أريد أن أثير شبهاتهم ، لا أريد أن
أستعدى اتهامهم ، لا أريد أن أستفز هجومهم ، لست
أخافهم ، صحيح ، لكن ما الداعى لأنواع من سوء الفهم
وتخبط المقاصد ؟ سأنتظر حتى يأتى المفتش وتنتهى
المسألة ، اما أن أجد التذكرة أو أدفع الثمن مضاعفا ،
والغرامة ، وبدل التكييف والدمغة والرسوم • أم أن
المفتشين يرفضون قبول الثمن ، ينتظرون حتى الوصول

الى أول محطة ، وياخذون المسافر الذى اقتحم القطار
الى مكتب الناظر . . لكى . . ما هى الكلمة ؟ لكى . .
لكى . . يطوق . . نعم هذه الكلمة . يطوق ، أو
يجبس . . لا . . لا . . كان هذا من زمان . فى
طفولتى . أليس كذلك ؟ لم يعد الأمر الآن على هذا
النحو . لم هذا الفرع المستكن لا يريم ، بذرة أثرية
قابلة للانفجار ، لا تريد أن تنفجر عن شجرتها السامة ،
ولا تريد أن تموت . غريب أن المفتش لم يجىء حتى
الآن . لابد أننا سافرنا ساعات وساعات . هذا القطار
مباشر صحيح ، لا يعرج على المحطات الوسطى . الام
ينذهب ؟ ما المحطة التى يجب على أن أنزل فيها ؟ عندما
تأتى سوف أتعرف عليها . سوف أعرفها سوف أعرف
اسمها . من شكل الأرض صفة ، وشبابيك التذاكر ،
والأبواب الجانبية، والسقف، سوف أعرفها، من نداءات
الحمالين ، ممن ينتظرون . يجب أن أعرفها .

كان القطار قد ارتفع فجأة فوق جسره ، يتسنى
طريقا له وحده . وهبطت الأشجار تحتى ، ورأيت
ذؤاباتها الكثيفة تنوس برشاقة غير انسانية موسيقية ،
خبطات القطار قد ازدادت عمقا ، ولها صدى ، وهو
يشق السماء المحايدة المحبوزة وراء الزجاج المسدود .

حدائق البرتقال تمتد تحت الجسر ، تبدو نائمة ،
شجرها قصير ومدورة وخضرتها داكنة والحبات الصفراء
المخضرة مرشوقة فى الكثافة التى تنضم عليها ، بنهم ،
كأنها ملصقة هناك ، غير حقيقية ، فواكه الشمع التى
كنا نضعها فى فسحة بيتنا وأنا صغير ، خداعة لا تؤكل
ولا رائحة لها . وعلى حواف الجناين أشجار الموز
القميئة ، مفلطحة الأجنحة ، عقيمة ، تأكلت أطراف
ورقها العريض الذى يتهدل هش النسيج . والطرق
تتشعب ، تحت جسر السكة الحديد ، الى مغترقات
وممرات ضيقة بين الفيضان الصفراء المحشوشة الزرع ،
والبرك الصغيرة بمائها الاسود الراكد عليها وز قليل
يجرى فجأة مفزعا لا أسمع صوته ، تحت أسوار حجرية
تعلوها أسلاك حديدية مدببة ، تحيط بخرابات مهجورة
فيها طوب وكتل من الاسمنت ولافتات زرقاء واسعة
تحمل بالحروف الانجليزية والعربية أسماء شركات
وبنوك ايرانية وسعودية مصرية مشتركة ونوايا مصانع
لأجهزة التكييف وثلاجات للخضر والدواجن ومناطق
حرة للتصدير والتوريد ، وربوة مضطربة الارتفاع
تأتى فجأة ، وعليها الشواهد ومكعبات القبور المحدبة
جديدة التلوين ، تحت شجرة الجميز العتيق .

خطفت تحت بصرى فجأة . على حافة التربة البطيئة
الجريان، سيارة مرسيديس واقفة متممة، فاجرة اللمان
تحت ورق الموز المسطح الجاف ، وبالقرب منها نساء
سمينات وجوههن كالخزف الأملس . مشقوقة الأفواه
والعيون ، يأكلن بتصميم وصمت من طواجن متعددة .
يجلسن على ملاءة سرير وردية اللون مفروشة على تراب
الغيظ ، وأيديهن لا تتوقف ، تحمل قطعاً كبيرة من اللحم
والخبز الملىء بالطبخ الى الأفواه المصبوغة . وكانت
أفخاذهن عارية وسـمراء وكثيفة في جلسـتهن على
الأرض ، وأولادهن يتحلقون حول الطواجن وترامس
الماء الكبيرة البطون - وبينهن فلاحات عجائز . كأن
أجسامهن خشبية ، بالطرح السوداء الجديدة ، يقفن غير
بعيد ، بلا حركة - اندفع القطار ، وارتفعت وجوه
النساء الى ، الأفواه تتحرك ، والعيون جامدة من اللذة
المكررة المعتادة ، واختفين وراء القطار .

نافذة القطار المزدحم مفتوحة ، وأنا أقف بين
الناس والقفف واللفف والربط والسلال الشائكة
الحوص والحقائب الكرتون المقوى المصبوغ بلون الجلد ،
أضع قدماً واحدة على أرض القطار المهتز ، واستند
بذراع أثقلها التعب والتوتر على مسند المقعد الخشبي

وراء رؤوس الفلاحين وأولاد البلد المتلاصقين بالبلد والطسواقى والطرايش ، وقدمى الأخرى مرفوعة محشورة بين السيقان والشنط والكراكيب التى يكتظ بها ممر العربى . الرياح يجرى تحت القطار بمياهه الحمراء عفية العضلات ، أمواجها الصغيرة تسابق القطار وتتقلب عليها كتل صغيرة من الطين والقش والأعواد الخضراء . هواء العصر فى هذا اليوم من أواخر سبتمبر يهب على وجهى ، باردا وقويا ، من النافذة الخشبية المفتوحة ، ويدخل بنفث الدخان الدقيق الذى أحس ذراته السوداء على يدي وأعلى صدرى تحت القميص غير المكوى المفتوح من غير كرافته ، والجاكته الصوف الجاهزة . الأشرطة البيضاء شامخة فوق أجسام المراكب المدببة الصدر ثابتة الجريان على مياه التربة التى تبدو فجأة ضيقة ومزدحمة .

قرعة القطار لا تتوقف ، والأفندى ، بجانبى ، يتحدث بثقة من تحت شارب الكث ومن كرشه الكبير ، ويقول لفتى اسكندرانى أمامه ، ملوح الوجه وأزرق العينين ، باللاسة اللامعة واللباس الاسود الواسع المتهدل الطيات ، أن الحكومة عملت وزارة جديدة اسمها وزارة التموين ، وسوف تعطى الناس كوبونات للجاز ،

وبطاقات ، دفاتر صغيرة مخصصة يعنى ، فيها أسماء
العائلة وتصرف لهم السكر والزيت بها . وامرأة ممثلة
القوام فى ملاءتها التى تراخت على كتفها . وكشفت
عن صدرها النازل من فتحة فستانها الواسعة ، مصممت
بفمها الشهوانى ورفعت حاجبيها المحفوفين ، قوسين
رفيعين على عينيها اللامعتين من الالتصاق بأجسام
الرجال ، تحت قمطة شعرها المحبوكة على جبهتها المدورة
وسألت : كيف تترك الواحدة أسماء ضناها ، اسم الله
عليهم ، عند الحكومة والبقالين ومن يسوى ومن لا يسوى؟
هذا لا يرضى ربنا ، حتى . ونظرت الى الولد
الاسكندرانى العترة الى جانبها ، بطمع صريح. وتذكرت
أمى . وكانت صحوة رجولتى الجديدة مذنبه . وكان
جسمى كله مشدودا من الوقفة المتزعزعة والزحمة
واليقظة فى الفجر وركوب الحمار مع أختى الصغيرتين
وانتظار القطار الفرعى فى محطة كفر داود الذى
يتوقف كل خمس دقائق ، ثم الانتظار فى محطة ايتاى
البارود للحاق بقطار الاسكندرية . ولم نكن قد أكلنا
الا القراقيش التى عملتها لنا جدتى باللبن الرايب
والزبدة ، وأوصتنى على اخواتى ودعت لى بأن يكتب لى
فى كل خطوة سلامة وأن يحوطنى ، بحق ابنه يسوع ،

ببركة الصليب فى كل مطرح أحط فيه رجلى ، وقبلتنى
على خدى بشفتيها الجافتين • وشممت رائحة الحطب
والخبيز من طرحتها السوداء وهى تضع حولى ذراعيها
الصغيرتين •

أستند بجزء من ظهرى الى القفصة الكبيرة التى
وضعنا فيها الوزه المذبوحة المنتوفة الريش، والقراقيش،
وصفيحة الزبدة التى سوف تسيحها أمى لتعمل منها
السمنة والمورته ، وأستند بجزء من جنبى الى حقيبتنا
الكبيرة التى ربطنا فوقها ، بدوبارة غليظة ، لحافنا
القديم • ولم يكن اللحاف نظيفا جدا ، كنا قد تغطينا
به منذ كنا صفارا جدا ، أنا وأخواتى ، عاما بعد عام •
والهواء يندفع من نافذة القطار فيفضح رائحة اللحاف •
والفتاة التى تجلس أمامى ، ملتصقة جدا بأختى من
ناحية ، وبالست العجوز المهدمة التى لا بد أنها أمها ،
أو خالتها ، من ناحية أخرى ، تحول وجهها عن الحقيبة
كلما انحرف القطار فى طريقه فاشتد تيار الهواء •
وأحس العرق الخفيف يخز وجهى بفتات دخان القطار
الدقيق • وكان وجهها جميلا وسمرتها صافية وحية ،
وعيناها حادثان متقلبتان بموج صغير فاتح الخضرة •
وجسمها المزحوم يبدو لعينى قويا ومتوفزا ، مدور

البطن ، وكان صدرها كبيرا ومحبوكا ومثيرا . وتنظر الى ، ولا أجرؤ على فهم ما تقول عيناها . وقلت لنفسي هل هي تلميذة بالثانوى تعود للمدرسة ، مثلنا ؟ أو بائعة فى صيدناوى ، مثلا ، أو هانو؟ وسرحت فى قصة عن أنها تحب ولدا مثلها وانه يحبها ويشتااق اليها .

وقالت لى فجأة بصوت غاضب ألا أستطيع أن أرحزح هذا من أمامها ؟ ألم يكن هناك مكان آخر أضعه فيه ؟ وأصابعها المكتنزة الدقيقة الأطراف بعيدة كأنها تخترق، جارحة ، ربطة اللحاف التى يضطرها الزحام أن تضغط بساقها عليه . فرددت عليها بصوت هادىء ومؤدب ومتقف اننى متأسف ولكن الأمر لم يكن بيدي فقالت بصوت حار وثاقب ان هذا غير ممكن وغير لائق حتى .

ووجدت نفسى أجيب بصوت مستثار ومستغز أنها ترى بعينها هذه الزحمة وأنها لو تستطيع أن تجد طريقة فلتفضل بأن تقولها ، وقالت هذه الربطة هل يعنى من نصيبها أن توضع أمامها ، وما هذه الربطة ؟ أهذا يصح يعنى ؟ ولم أتنبه الى أن سؤالها كان سؤالا حميما ، وكانت عيناها الآن مشتعلتين وكان صوتى الآن عدوانيا ومهاجما وأنا أقول انه يجب أن ننحمل بعضنا ساعة زمن على أقل تقدير واننى لست السبب فى قيام

الحرب وزحمة القطارات وأن المسألة ليست ما يليق
وما لا يليق بل مسألة ظروف لا نتحكم فيها ، وضبطت
نفسى أوشك أن أفلسف أخلاقيات زمن الحرب فسكت
مرة واحدة وسكتت هى بعد أن تنبعت الى الناس حوالينا
وكانوا ينظرون الينا ، وكانت السيدة الملسوفة التى
تبدو فى عنفوان نضوجها المتأخر قد مالت على الولد
الاسكندرانى جارها ، تتابع الخناقة ، ورفعت يدها
تسوى مدورتها بسرعة على شعرها ، وانحدرت الملاعة
السوداء على ذراعها العارية البيضاء المتموجة المياه ،
وكان جانب ثديها الآن ملتصقا بكتف الفتى وبدا كأنه
محبوس وممتلىء . وعادت قرقة القطار تتابع وتدق ،
مرتفعة مرة أخرى ، وتغرق هممة الكلام ونداءات
البياعين الذين يقفزون وينحشرون بين الركاب والقفف
والحقائب ، يحملون على رؤوسهم مقاطف اليوسفندى
الطازة العشرة بقرش . واكتشفت فجأة وهى تنظر الى
بعينيها الخضراوين ، فيهما غضب وفهم ، اننى متوتر
وصلب جدا ، وان بطنها دمث وراسخ ، وصدرها يهتز ،
بثقة ، مع هزات القطار الرتيبة .

عندما ماتت أختى بالتيفويد فى آخر ذلك العام
تذكرت نظرتها الودية الى وهى بجانب هذه الفتاة ،

كأنها تغفر لي ، وتذكرت اننا لن نجد عربية حنطور تقبل
أن تحملنا الى البيت من المحطة بثلاثة قروش وهى كل
ما كان معي ، واننى حملت الحقيبة وتركت لها القفلة
الكبيرة وكانت ثقيلة عليها ، فرفعتها وحملتها فوق
رأسها ، وهى ماتزال طفلة ، بالكاد فى الرابعة عشرة ،
وكانت نحيلة وشديدة السمرة وشعرها مجعد وعيناها
فيهما شجن لا أفهمه وهادئتان ، ومسحوبتان كحبات
اللوز ، وصعيدية جدا ، وكانت أقربنا شيئا بأبى .
وبكيت عندما تذكرت كيف كانت تسير الى البيت بصبر
وصعوبة ، أمام المقاهى والدكاكين المنيرة المزدحمة فى
أول الليل ، وتقول أنها ثقيلة فأقول هانت وسنصل
بعد دقائق ، وكانت دموى صافية لأول مرة وعرفت أن
البكاء لامعنى له وان الألم الذى يمزق القلب شيء لا وزن
له ولا يجد شيئا عند أعز الناس الى القلب . وتعلمت
شيئا آخر عن الوحدة . وأنا أبكى الآن ، بعد السنوات
الطويلة ، بلا ضرورة أيضا . وكنت حزينا وأنا أفكر
اننى سأجد أختى تنتظرنى على الشباك وسوف أرى
وجهها الصعبدى الناعم السمرة وعينيها العميقتين
النجولتين بسوادهما الذى تخفيه عني ، وانها ستقدم لي
فنجان القهوة المضبوط الذى تعرف كيف تصنعه لي ،

لكى أسهر طول الليل أنهى كتاب تاريخ الحضارة وأرده
غدا للمكتبة البلدية . وقلت لنفسي اننى لن أضربها على
وجهها بعد الآن لأنها تقرأ رواية غرامية من روايات
الجيب وسأقول لها ألا تسهر تنتظرني حتى أعود بعد
منتصف الليل وبعد أن ينام كل من فى البيت وتعد لي
عشائى وتسألنى اذا كنت أريد فنجان القهوة المضبوط ،
لا داعى أن تسهرى ، نامى أنت ، ساعد لنفسي العشاء .
وكنت أفكر أن الحزن ورقة القلب غريبة وقد فات أوانها
من زمن بعيد ، وليس لها الآن أدنى أهمية .

كان زجاج النوافذ مصمتا والستائر الثابتة
الكريتون الداكنة الصفرة تبدو كأنها ورق ديكور قديم
وكركرة تكييف الهواء الجافة قد سككت والناس صامتين
يتحركون كأنهم مرغمون على النزول . ضباط الجيش
من غير حماسة الآن ، والنساء اللاتى بهت الماكياج على
عيونهن المرهقة الظلمة ، والمقاولين بعد غلظة الأكل
والبيرة وحسابات المكاسب العقلية وغير العقلية راضين
جدا ومثقلين بأجسامهم التى كأنها ماتت عنهم .

والقطارات المنطفئة قد توقفت أخيرا فى ساحة
المحطة الداخلية التى تتوقد فيها مصابيح متناثرة على
أعمدة عالية ، بقعا باهتة تسقط ضوءا قليلا على

القضبان الحديدية • وتعريشة نباتات طازجة الخضرة
فى النور المصنوع ، تتسلق جدران كشك خشبى مفتوح
الباب ، ووراءها أوراق التين الشوكى العريضة الكثيفة
الجسد ، أيديها ممدودة مدببة السنان ، خضرتها غضة
وشرسة وتوشك أن تتفجر بدمائها • أكوام تراب الفحم
عالية ولامعة السواد بجانب الخضرة • القطارات قد
أفرغت من سكانها ، ونوافذها فوهات محترقة وعليها
سواد الدخان • والدبابات الفاتحة اللون فى الليل يقظة
ومعمورة ، خارج السور الحديدى الطويل ، مدافعها
ثابتة تخترق الظلام ، مترصدة •

طلقات الرصاص بعيدة ، تتجسأوب متقطعة لها
أصداء تتردد بين الشوارع التى انحسر عنها الناس ،
فاتسعت وهى تشق قلب المدينة الصامتة • والبيوت
خارج سور المحطة مرصوفة ومتطابقة ومسدودة
النوافذ، غارقة فى الماء ، مظلمة كلها ، أعرف أنها مغلقة
على نفسها ، حقل من أزهار عباد الشمس الحجرية فى
الليل طوت أوراقها القديمة الصلبة على بذورها
وتضامت أعمدتها الساقطة التيجان واقتربت بدون
صوت من بعضها البعض فلم تترك بينها فسحة لاعتداء
الليل •

وقع خطواتي ثابت وواثق على الحجر وأنا أرتفع ،
في الظلمة ، على حافة بناء شاهق يقف على طرف جسر
ترايبى مرتفع ، وتحت المساء الراكد كأنه مرآة ساكنة
السطح ، مدت عليه ألواح من الخشب تصل بين الرصيف
وحائط البناء المتين الأحجار . أصد السلالم الخارجية
المنحوتة خارج البرج ، من غير سياج ، كتلا صغيرة ضيقة
وعرة ، مرصوفة فوق بعضها البعض ، من حجر أبيض
ثقيل الملمس تحت قدمي .

أرتقى السلالم الحجرية بعزم معقود وأساسى ، وأنا
أرزع بالنشوة والفضب ، معلقا على حافة هذه السماء
التي امتلأت بجسد الليل . أعرف أنتى لا أستطيع
النزول ، أنتى لا يمكن أن أنزل الآن ، وأننى أصد الى
هذا الوجه بسمرته الصافية ، وموج عينيه ، الى هذا
الجسم الناعم الراسخ الذى سيبقى معى الى يوم موتى ،
وانه لا يمكن أن يفصل بينى وبينها شيء .

(٤)

كانت الشمس شتوية مفسولة ، وهواء البحر يأتى
الى من فوق ربوة الرمل الجاف التى ترتفع مباشرة على
جانب الرصيف الحجري العالى فى المحطة - أقف وحدى
فى المحطة الخلوية التى ليس فيها أحد ، أحس الحجر
الأبيض الهش فيه خيانة كامنة ، تحت قدمى ، والقضبان
الحديدية تتساب فجأة بصمت بين الرصيفين القائمين ،
يرتفع على جانبيهما صفان من الأعمدة الرقيقة تلتف
حولها أغصان متلوية رفيعة الجسد من الحديد المشغول ،
كأنما تعتصرها فى شبق مكتوم - أرى الأعمدة تصعد
نحيلة ، ولامعة فى نور الصبح بلمعة منطفئة ، حتى
تعلو عن الربوة الرملية وهى تحمل السقف الزجاجى
المعذب المحمل على عوارض أفقية مسطحة يبتها أعمدة

متينة قصيرة تترك فجوات للنور والهواء على شبكة
العوارض • لوحات السقف الزجاجية تومض عليها
الشمس وقد ضربت فيها عروق الحديد المستقيمة
وشرايين متشرجة من دخان القطارات المتراوح
السواد •

هبة هواء تحمل ورقة صحيفة يابسة على القضبان،
ترفعها وتتخبط بها فتخشخش على الزلط بين الفلنكات
الخشبية بمساميرها الغليظة الرؤوس ، بصوت
مسموع •

تتفرع القضبان بعد انتهاء الرصيف مباشرة الى
شبكة واسعة متعرجة ومتلاقية ومتفارقة ومتواشجة تدور
وتنعنى حتى تنتهى فى البعد الغامض ، تحت شمس
بينة ، الى ركाम من أحجار قديمة ، وأسياخ الحديد
الصدىء وآكوام الفلنكات الباهتة الخشب ، وصهريج
ماء فارغ مدور ومقلوب على جنبه متغضن الجدران
امتلاً نصفه بالرمل والزلط ، وجدران أكشاك تقشر
طلاؤها الأخضر العتيق ، ساقطة بين أجسام الصبار
والتين الشوكى الغليظ الأقراص •

كنت وحدى ، أنتظر القطار الذى تأخر كثيرا
وأسأل نفسى بقلق فى هذا الخلاء : هل جاء وذهب ؟ ولم

أنتبه اليه ؟ كيف يمكن ؟ ولم أكن أعرف مع ذلك الى أين سيمضى بى القطار ، اذا جاء ؟ مرسى مطروح ؟ أم أبو قير ؟ هل هذه محطة الضبعة أم العصافرة أم عين الشوك ؟ عين الشوك ؟ أهذه محطة ؟ أين هى ؟ كأننى لم أعرفها أبدا ، وهى مع ذلك مألوفة أركب منها كل يوم .

نفح عطن خفيف جدا لا يكاد يحس يسرى الى على مهل من الجانب المفتوح للمحطة ، عبر منحدرات رملية واسعة وهينة التحدر داكنة اللون قليلا من الليل . من ورائها أحس فقط ، ولا أرى ، مستنقعات الملاحنة والهيش المتكاثف فوق الماء الثقيل .

وفى وسط سهل الرمل الصلب العريض أرى ، من بعيد ، بيتا حجرياً يبدو صغيراً ، وحده ، له شباك مغلق ، وعلى سطحه غسيل منشور ، ملاعات مصفرة البياض وجلاليب نسائية ملونة ترفرف فى العراء بصوت اصطفاق القماش الخشن فى الهواء .

رفعت رأسى كأنما حفزنى شىء لاعج ومفاجىء ، فرأيت أختى لوزة تجرى بقدمين خفيفتين حافيتين ، كأنها ترقص على موسيقى واسعة الجناحين لا أسمعها ،

على طريق غير مرصوف ، فوق الربوة الرملية العالية ،
وشعرها الوثير الفاتح اللون يطير فى زرقه الهواء ،
وفستانها الخفيف يهفهف حول ساقىها البيضاوين
المتلئتين ، المتحركتين فى رقصتها بلا وزن ولا ثقل ،
كأنها تسبح ، يحملها الهواء من غير أدنى مقاومة .
وكنى أعرف أنها ماتت منذ سنين ، محروقة ، فى
المستشفى الفرنساوى فى اسكندرية . وكنى أحمل فى
قلبى نظرتها الأخيرة قبل أن تموت ، وقد تمددت على
فراش المستشفى ، بلا حراك الآن ، ضاوية ، جافة ، جلد
ظهرها كله احترق وسقط ، ولحمها الموجع مكشوف
الأعصاب تحت الضمادات الكبيرة برائحتها النفاسة
الحريفة ، وقد أنهكها عذاب الحرق والعلاج الطويل
والتخدير المتصل فما عادت قادرة على الكلام . أمسكت
بيدها وأحسستها تسلم يدها لى ، من غير حركة ، وفى
عينىها الثقلتين المفتوحتين على سعتيها سؤال لا رد عليه ،
وعتاب نهائى .

وكان وجهها البيضاوى المسوح مرفوعا الى فوق ،
فى رقصتها المتماوجة ، مضيئا بنور ناعم من سماء
البحر القريب .

أخذت أجرى معها ، وأنا تحت ، أجرى بين القضبان

فى المحطة التى تتسع وتتعدر وتطبق على ، وسقفها
أجده منخفضا وعريضا وبلا نهاية ، والقضبان تتلوى
حوالى ، بين قدمى ، بتفريعاتها الخبيثة الشكل . وقد
امتألت المحطة فجأة بالناس المسرعين مسافرين وواصلين ،
والحمالين ، الذين يجرون أمامى وورائى أكاد أتعثر بهم .
وأجد نفسى أمام حواجز حديدية مشبكة مغلقة من خلفها
المراقبون يتربصون بى ، وفى أيديهم المقراض الحديدى
الضخم البشع الحواف ، بإسانه المدور الحاد الذى أعرف
أنه لو انطلق بضغطة من اليد من بين الفكين القابضين
فسوف يثقب صفحة قلبى المثقلة بسنه القاتلة المدببة ،
ثقباً واحداً ، يغوص حتى النهاية ، والصمت . وأكاد
أصطدم بالمفتشين فى البدل الميرى الداكنة واقفين ،
يعرفون ، وينتظرون ، ووجوه أخرى ، كثيرة كثيرة ،
جامدة تماماً ، غير حليقة ، تطل على من نوافذ القطارات
الطويلة التى أجدها عن يمينى وعن يسارى ، فأجرب ،
تحت ، فى وهدتى الحديدية المتعانقة الخطوط ، بلهف
ومضض ، وأعرف أنه لا نجدة لى .

كنت أريد أن أصعد إليها قبل أن تختفى وراء
ربوة الرمل بعد المحطة - أريد أن أتمس طريقاً الى
الجسر اللدن الطرى الكتلة ، وأعرف بمجرد الرؤية أن

رمله الناعم سوف ينهار تحت قدمي لو استطعت أن
أجد السكة اليه ، حتى لو استطعت أن أضع قدمي
عليه .

وكنت أتسلق المرتفع الرملى الآن ، قدماى
لاتثبتان ، تنزلقان على الرمل الذى ينحدر فجأة تحت
ثقلى . وأرى ، وأنا فوق ، الشارع الرملى الطويل ، غير
مسفلت ، والبيوت عليه من الجانب الآخر منخفضة
وحجرية بنافذة واحدة عريضة كبيوت المكس والدخيلة
القديمة . وأعمدة النور المتلاحقة على رصيف واحد من
الشارع مطفأة فى الغروب الذى يظلم سريعا . وفى
الشارع ، عميقا تحت ، امرأة عجوز نحيفة الجسم جافة ،
بملايس سوداء متربة ، وعلى رأسها طرحة قديمة
مشعثة ، وهى ترفع الى يدها ، ولا أفهم ماذا تريد . هل
هى تطلب منى شيئا أم تعطينى ؟ ويفدحنى ويعذبنى
أننى لأعرف ، بينما أعلو فوق الرمل وأهوى . وفى
غبش الغسق الناعم الملمس تنفتح النافذة الوحيدة فى
بيت تحتى مباشرة ، من الناحية الأخرى عبر الشارع
الخالى ، والنور من مصباح كهربى عار ينصب وراء وجه
المرأة التى أعرفها وأحبها ، مدورا ، وخمرى ، وأسيل
الوجنتين ، ولكنى لا أراه فهو معتم فى النور الذى يأتى

من خلفه ، ولا أرى لون عينيها ولكنى أعرف مع زمن
سحيق خضرتهما العميقة بلون الصبار الفضى القديم ،
وأحس نعومة جسمها وانسياب ثيابها ووهج النور على
شعرها المغدودن الكث . وأريد أن أناديها وأمد إليها
ذراعى فأسقط على الرمل . وأحس نفسى أئدحرج عليه ،
وأهوى وعلى وجهى مس حبيباته الرقيقة أنشق رائحتها
المصوحة ، وأنا أتثبت بيدي كلتيهما بالكتلة المتهاوية
التي تفلت من أصابعى . أثبت قدمى فلا أجد موطنًا ،
وأحتضن الرمل اللين فلا أجد موئلا ولا ما أضم ذراعى
عليه . وأعرف أننى مهما تمسكت به فسوف أنحدر
وأنقلب ، وأهوى الى ما لا نهاية ولا قرار .

وأجد نفسى ، تحت ، على طريق القضبان ، فى
باحة هذه المحطة الغامضة التى غصت الآن بقطارات
تصل وتسافر تنهج وتنفت وتصفى صفيرا ثاقبا تتردد
أصداؤه بين جنبات المحطة . والنور الكهربى من الأعمدة
العالية محصور وميكانيكى الوقع . وشم طاقة مهدورة
تنفثىء فجأة تحت عجلات القاطرة السوداء التى تنزلق
بصمت وتمكن ، حتى تقف راسخة وعالية . قطارات
تقوم بانسياب بطىء هادىء ، تقلع بصدورها المدورة
العريضة الى محطات لن أراها أبدا . وقطارات خالية

معتمدة ترجع على أعقابها فى مناورة حريصة لتدخل خطا
متفرعا آخر ، عجالاتها تخبط فجأة اذ تصطدم بالتحويلة
فى القضبان . أما أنا فأجرى مبتعدا عن القاطرة
القادمة ، المداهمة ، متجهة نحوى باصرار . هل أنا
أجرى من شىء أم أبحث عن شىء ؟ أم أنهما كلاهما ،
ما يدفعنى بلا هوادة الى هذا الجرى الثابت الخطى لأحس
له جهدا ولا عبئا ولا يمكن أن يتوقف ؟ لأعرف . لا يهم .
المهم هو هذا النداء الذى بلا صوت ، ما أنى أنشده ،
وأنتظره ، ويشدنى . فأجرى وأثب بخفة كأنما يرفعنى
شىء ما ، فوق درجات حجرية صغيرة ، درجتين درجتين
كل مرة ، فى آخر الرصيف ، وأدور الى الوراء بعيدا عن
سماء الليل المفتوحة ، بعيدا عن أخطار القضبان التى
لأدرى أيها سوف يمر عليه القطار المهاجم . وأدخل
مرة أخرى الى كن المحطة المسقوفة بالزجاج المعتم
والحديد المغروز ، بين صفى الاعمدة الملفوفة الجسم ،
فأجد فى وجهى مصعدا ضخما ليس له باب . ما أكاد
أضع قدمى على أرضيته الخشبية العريضة حتى يصطفق
له باب ذو مفصلات منزلقة تنفتح فجأة بعد انكماشها
فى مخابئها ، وتتمدد ، فيوصد على المصعد الثقيل الذى
يهبط ، بين أعمدته المكشوفة ، على أرضفة متعاقبة

أحدها تحت الآخر ، حتى يصطدم بالأرض . وينفتح
الباب تلقائيا على مخزن شاسع معتم ورطب الأنفاس في
دور سنفل ليس فيه الا آكوام الأخشاب المرصوفة
الشاهقة الارتفاع ، نقية وميتة وعارية .

أجرى مستريح الخطو ، وصدرى فسيح وهادئ ،
الى قوهة منيرة ساطعة . مشدودا اليها بدعوة لا غلاب
لها ، فادخل فى نفق واسع دائرى الجدران كأنه أنبوبة
مبطنة ببلاطات الخزف الصينى تومض ببياضها الزلق
ولا تنتهى ولا ينتهى جريى فيها ، حافيا ، أحس دفء
الجرانيت الأحمر الخشن الوجه تحت باطن قدمى .
والضوء القاسى يهبط على ثم ينقطع ، ويسقط على من
جديد ، حزم متعاقبة لا رحمة فيها ، من مصابيح عريضة
التدوير ومسطحة ومتقدة بوهج بارد ، تتلاحق فوقى
الى ما لا نهاية . وهواء الانفاق المحمل برائحة خاصة
يهب على وجهى الذى أحسه يتفصد برشح العرق ، دون
أن أنهج ، وليس فى صدرى ضيق ولا غضب ، ولست
خائفا ، ولا أطلب شيئا ، كأننى فقط أودى واجبا ،
ولن أصل أبدا الى شيء .

وكأنما هذا هو .

هذا هو حقا قطارى • الذى ان ذهب فليس لى
غيره •

قطارى يرتفع أمام وجهى عاليا ، راسخا •
لكنه يقف على الناحية الأخرى من الرصيف ، وأنا
تحت بين القضبان وفى يدى حقيبة صغيرة ولكنها
ثقيلة •

والعربة مرتفعة ، سلالها الضيقة الحديدية يصعب
ارتقاؤها من حيث أقف • الكمسارى يطل على من الباب
السميك المفتوح الى الداخل • وجهه غير حليق ومظلم
وهو يتحنى على ، يمد الى يده من غير مبالاة • لم أسأل،
ولم يقل شيئا • أحاول أن أرفع يدى اليه ، أن أصل
بيدى الى قبضته • يجب أن أصعد الى القطار • هذا
القطار ، وحده ، دون غيره ، يحمل شيئا أو شخصا هو
الأعز الى ، هو الذى يعطى كل شىء معناه • والجهد
الشاق لا يكاد يحتمل ، وفى ذراعى ثقل لا يطاق ، وأبذل
كل جهدى ، ويدي لاتصل ، بينما القطار قد أخذ
يتحرك • لأستطيع الصعود مهما حاولت ، والقطار
يتحرك ببطء • العجلات الشريرة العارية تدور على
مهل ، ساكتة مصممة ، ثم تتسارع قليلا ، وأنا أجرى
بجانبيها تحت الباب المفتوح ، يدي بالكاد تحت يد

الكمسارى الممدودة التى ليس فيها كبير اهتمام على أى حال ، ولكنها ممدودة الى ، لا ألحق بها ، القطار أسرع منى ، يستجمع عزمها يفوق عزمى ، ويفلت منى . ايقاع انطلاقه لأدركه . يذهب عنى . أفقده . وضعت فى ساقى كل قواى ، جريا ، ممدود اليد ، مثقلا بحقيبتى الصغيرة ، وكأن قدمى مكبلتان وهما تخبطان الأرض ، الآن ، ترتفعان بالكاد وترتطمان بالأرض التى تشدهما بقوة وتقبض عليهما . أتحرك بكل ما فى قلبى مع اصرار ، فى استنفاد . وهانذا قد ضاع منى قطارى . تصلبت ساقاى وناء بجسمى كله وطء رازح فى العضلات التى سفحت كل قطرة من جهدهما . أجرى بايقاع ثقيل تتخبط ساقاى احدهما بالأخرى ، وقد مضى القطار عنى ، بقوة ، وصفر صفيرا أجش ملأ سماء الليل . أطامن الآن من اندفاع ساقى اللتين لهما ارادة خاصة ويائسة ومستقلة . ولكنى لأجد فى صدرى حرجا ، أى حرج ، ولا أجد أنفاسى تتدافع ، بل كل شىء هادىء وفسيح ، وأنا وحدى ، لأريد شيئا ، ولست حزينا ، ولا قلقا ، ولا واجفا ، بين القضبان المتواصلة المتباعدة فى باحة هذه المحطة الساكنة الآن تحت السماء الخالية .

وسمعت النداء •

من يتناديني ؟

كنت فى الشارع التنظيف المبلط بالبازلت الأسود
المحذب قليلا ، فى وسط ساحة ضيقة تلتقى فيها قضبان
الترام الدائرية التى تلمع من المطر ، وقد أقلع الآن
وترك فى السماء محابا أبيض يطفو على الزرقة
المغسولة • وأنا أريد أن أعبر الشارع من أمام جدار
مدرسة السبع بنات المصمت الطويل المرتفع وقد نشع
ماء المطر عند أعلى بياضه الكابى قليلا •

عسكرى المرور يستدير وينظر الى من أعلى بوجهه
القائم المدفون العينين ، ليس فيه أدنى تعبير ، ويرفع
ذراعه ، يفتح لى الطريق بلا عناية •

أخطو خطوتى الأولى ، واذا بالساحة قد ازدحمت
مرة واحدة بأربعة تراموايات قادمة هاجمة ، مقدماتها
الزرقاء عالية ، مسدودة ، تقتحمنى وأنا فى سرة الساحة
التي ضاقت على جدا • والسائقون الأربعة الذين أراهم
كثيرين ، بلا عدد ، من وراء الواجهات الزجاجية
المرتفعة ، مهددين يمسون بالعصى النحاسية الأفقية -
القصيرة بقوة وتمكن يهزونها أقل اهتزاز ، بتصميم •
والترمووايات الأربعة جميعا من كل الجهات تندفع الى

على قضبانها في زئيرها الهادر . لا وقت للرجوع ولا
للتقدم ولا للحركة في أى اتجاه .

محاصر ، بل قد أطبق على الحصار .

لا أريد أن أموت وأنا محاصر .

أنا الذى دفعت بنفسى الى هذه البؤرة التى لا خلاص
منها ، وكأننى أنا الذى دعوت هذه القساطرات التى
تقتحم على العالم ، وتسقطنى فى هذه الحلقة المتزلزلة
بالطاقة المهددة . فاذا لم أستطع أن أحطم الحصار ؟ كيف
أثبت له ؟ وكيف أخرج ؟ وهل أنا الذى جئت بنفسى
فعلا الى هذه الوحدة التى تضيق على ، بقوتها المداهمة
المتفجرة ؟

وأنا فى وسط القضبان وحدى على البازلت الأسود
الشرير الذى يومض . والتراموايات جميعا تنقض
على ، لعجلاتها صوت احتكاك الصلب ، ثاقب تقشعر له
كل جوارحى وتصطدم فى دوى تتخبط له جدران
الشارع ، تقرقع وترتطم ، ثم يحل صمت تام . وأرى
السحاب الأبيض ينزلق على هواء البحر المبلول .

وأسمع النداء باسمى .

من يتنادينى ؟

كانت تقف وحدها على الرصيف تحت ربوة الرمل
العالية الناصعة البياض ، والنور ينسكب بين الأعمدة
الباسقة بأغصانها الحديدية الوثيقة الحنان ، من زجاج
السقف بعروقة الصلبة الرقيقة ، ورواسب الدخان
القديمة باهتة عليه ، مشعة بما تتشربه من صفاء زرقة
السماء .

وجهها المدور بسمرته الرقراقة يضيء ، وشعرها
القصير المغوى تحيطه هالة من وهج شمس الظهر، وكأنه
ذهبي مع أنه وحى السواد . . عيناها تضربان قلبي
بخضرتيها الحوشية ، صدرها بكبريائه ولدونته يداى
تحدسان - وكأنما تتذكران - نعومته وحجم دورانه
وتماسكه الطيع ، وهى شبقية كآكثر مايمكن ، كأخصب
وأملأ مايمكن . هل هى التى تنادينى ؟ وفى عينيها هذه
النظرة التى كأنها متحيرة ، وهى عارفة . هذا الضوء
الذى يسقط عليها انما ينبع منها ، مثيرة ومحبوبة
بما لايمكن أن يقاس .

دموع العمر كله لن تغسل وضر القلب الذى يشتعل
مع ذلك برجد ماطع اللظى . محرق . أهو مطهر من
اللوثات ؟

كانت لدنة ، مليئة ، فى فستان حريرى مقفل على رقبتهـا ، وهو يسلم عليها • أحس يدها الرخصة متروكة له من غير رساله • فلم يقبل • جاش فى صدره أنه يريد أن يقول لها كم يحبها • امتدت يده الى مؤخرة رأسها • فى يديه من جديد دغدغة الشعر القوى الـوحف، حس النعومة وخشونة اللمس معا فى أطراف شعرها وعمقه • وقبلها بصمت على فمها المبدول بصمت ، فى الأول ، المستسلم من غير حركة ، ثم ارتعش فمها تحت شفـتيه ، صدرها المحبوك يرتفع تحت صدره ، يده تتلمس مؤخرة عنقها الغضة ، أنفاسها تتسارع باللهفة !القديمة التى يعرفها وتثيره ، تنتقل اليه قبلتها ، شفـتاها متطلبـتان متلمستان الآن تضغطان على شفـتيه ، فيهما اجابتهـا ، كأنما تطلب النجدة من الوحشة ، وتستغيث من القهر الجسدى •

ثم انفلتت عنه بسرعة ورفق وتحوط ، وهى تنهـج، وقد تـضرج الدم فى سمرة خديها الرخيمة اللمس ، وعيناها فيهما هذه النظرة الغائبة ، صافية جدا ، خالصة من كل غربة ، وكأنها فى الوقت نفسه مستغرقة فى غربة نهائية •

كانت هى التى آفقت • • أولا ، من بهرة المفاجأة •

قالت له : القطار . .

قال لنفسه : الحلم الحلم الحلم . وجوده الحبرى الآن
ثقيل . يتطلب أن يرفع عن كتفى .

وقال : كان الحلم خفيفا ، وطائرا مطلقا بين
السحاب أرنو اليه بعين الاطمئنان ، كأنه فى متناول
اليدين .

أما الآن فقد سقط على بثقله الركين ، ينوء بى ،
لا أستطيع أن أنهض به من الأرض .

ساقط أنا تحت وطأة الحلم لم أعد أقوى عليه .
يداي خاويتان تحتكان بالحجر والرمل الخشن ، على
مشارف مدينة منتهكة .

(٥)

كنا عائدين للاسكندرية بعد أن قضينا الصيف في
الطراثة قرية جدتي • ذهبنا من السكة الزراعية ، على
الترعة الكبيرة المتدفقة بمياه الفيضان الحمراء السريعة
الجريان • وكنا نركب أنا واختاي الصغيرتان على
حمارين ، ومعنا الولد برسوم ، ابن أرساني أفندي
خال أمي ، يجرى حافيا - مع أنه ابن باشكاتب العزبة -
الى جانب الحمارين • رفع جلاليته بيده ، وخلع حذاءه
الجديد ووضعه تحت ابطه ، وأخذ يحث الحمارين بعصا
قصيرة من خشب السنط • وكان برسوم أصغر مني
قليلا ولكن معرفته بأمور النساء واثاث الحيوان أكبر
مما أعرف بكثير ، حتى ولو كنت قد سبقته ، من زمني ،
في يقظتي الشبقية • وكان قد حكى لي طول الصيف عن

مغامراته المراهقة مع الققط على سطح البيت فى لىالى
القمر ، ومع الحماره البىضاء فى الغىط ، وعن حكايات
نسوان القرىة وما يفعله فى الذرة مع الرجال
وكانت حكايات •

ولما وصلنا محطة كفر داود ، كان قطار الصبح قد
قام وفاتنا • وجلسنا ننتظر قطار العصر فى المحطة
الصحراوية الخاوية ، ولعبنا الاستغماية فى المحطة كما
كنا نلعب مع لنده ورحمة تحت شجرة الجميز الكبرى
أمام بيت جدتى • وفككنا الحبل من حول القفة الكبرى ،
وأكلنا من القراقىش التى صنعتها لنا جدتى من دقيق
القمح والزبدى ، وشربنا من حنفىة المحطة •

ركبنا قطار الخط الغربى بعرباته الخشبية القليلة
المقفلة ، وكانت النار تتوهج فى نور العصر بحمرىة
اللب الذى يفح وىتقد ، ملئًا ومتواثبا بقوة فى بطن
القاطرة المدور الاسود •

وعندما كان القطار الرقيق الصغىر يشق جسم
المساء بعرباته المتأرجحة كنت أرى على جانب القطار
عیدان الذرة محترقة وعارىة ، فى آخر نور الشمس ،
نزعت عنها أكوازها المغلفة بقشرتها الدسمة الخضراء
المضمومة ، ووضعنت الثمار الغضة فى أكوام عالية

متحدرة على رؤوس الغيطان ، وحطام أوراقها متناثر
على سواد التربة ، صفراء وهشة .

وانطلقت فجأة على التربة العريضة أسراب متعاقبة
من العصافير ، داكنة اللون كأنها خفافيش صغيرة ،
أجنحتها رفيعة وطويلة ومشدودة حتى آخر أطرافها ،
تurf قريبا جدا من سطح الماء .

وقبل ايتاي البارود كان الليل قد نزل ونامت
أختاي على المقعد ، وأضيئت المصابيح في العربة ،
مطلية بالأزرق ، طويلة ، وبيضاوية ، تريق نورها
المنهك على المقاعد المصنوعة من ألواح رقيقة متلاصقة
من الخشب اللامع .

ومر القطار بعربات الجاز الصغيرة عليها خط
عريض أسود ينزل من الصنبور الأفقي في أعلى العربات
ويلف على بطنها الداكن الحمراء في عتمة الليل المشعة ،
وهي مركونة على القضبان الجانبية في ساحة المحطة .

كانت محطة ايتاي البارود مظلمة تماما بالليل .
وكنا قد نزلنا من الخط الغربي وصعدنا على الكوبري
المعدني العالي فوق الأرصفة والقضبان ، ونزلنا ، أنا
أحمل الشنطة المصنوعة من الورق المقوى البنى التجزيع
تقليد الجلد ، وأختي عبادة ترفع على رأسها القفة

الكبيرة الثقيلة التى تكدست فيها القراقيش ، والوزة المذبوحة ، وصفيحة السمن الجاموسى ، كلها ملففة ومدكوكة ومصطفة بين اللفف والجلاليب المفسولة والقوط ، وقد ربطنا اللحفاف القديم داكن اللون فوق القفة بحبل متين ، مكشوفاً للعيان وله رائحة ، أما أختى لويـزة فكانت تضم بين ذراعيها ثلاثة لفف صغيرة مربوطة بخرق من القماش .

جلست بجانبى من ناحية ، أختى عايدة التى ماكادت تبارح طافولتها بعد ، مايكاد صدرها الصغير يرفع فستانها الكستور الطويل ، سمراء صعيدية ، عـشـعرها جعد خشن يؤكـد بسواده سواد عينيها اللوزيتين ، بنظرتيها الحزينة ، ومن الناحية الأخرى أختى لويـزة ، الصغيرة ، بوجهها الأبيض وجسمها الممتلئ الطفلى ، والتصقتا بى من برد الليل . كنا قد وضعنا الشنطة والقفة واللفف الأخرى الصغيرة على الأرض تحت المقعد الخشبي المقعر الظهر الداكن الخضرة فى الليل ، أمام جدار مبنى المحطة المظلم . كان مكتب الناظر وحده فيه نور أزرق كاب منصب مباشرة على عدة قطع التذاكر الحديدية الصغيرة ، وراء الشباك بقضبانها المتقاطعة وفتحته الصغيرة .

دخل المحطة بصت قطار عسكرى طويل • الأرقام،
والكتابة الذهبية الباهتة ، غير مقروءة على بطن القاطرة
المدور ، والعربات لا نهاية لها ، غاصة بالجنود الانجليز،
امتألت النوافذ المفتوحة بوجوههم الملتبسة وأذرعهم
المكشوفة فى القمصان الكاكي بنصف كم ، فى النور
الأزرق الشحيح ، وهم يطلون على المحطة فى نصف
اليقظة ونصف النوم •

كان العطشجى فى أول القطار يملأ خزانة بالماء
الذى كان له صوت صلب متدفق وأجش اذ ينصب من
خرطومه المضلع الثقيل الجلد المثبت فى الصنبور الأرضى
الضخم • وكان القطار أمامنا على الرصيف ، يقف
موحشا ومعزولا لم ينزل منه أحد ولم يصعد اليه أحد،
ولم يقترب منه أحد الا باعة السميطة والجبن واليوسفندى
الذين تخطف العساكر بضاعتهم الهزيلة الشكل ، وكانت
صيحات المساومة بالانجليزية المكسرة والعربية المكسرة
تتجاوب فى الليل • هرب بعض العساكر الى داخل
القطار دون أن يدفعوا ، وجرى البائع على الرصيف من
نافذة الى نافذة ينادى جونى جونى جيف هير فايف
بياستر جونى فايف بياستر ، وضحكات رفيعة وغير
حقيقية ، عبت الذاهبين الى موتهم صبيانا أراهم من

النافذة ليسوا أكبر منى الا بقليل ، ناموا على المقاعد الخشبية فى شحوب النور الأزرق • وانحنى ولد منهم له وجه طويل نحيل باهت اللون من النافذة أمامنا وهو يشير الى أختى التى التصقت بى أكثر ، وعيناها السوداوان مفتوحتان على سعتهما وليس فيهما خوف بل سؤال صامت عميق • وقال الولد بلهجة لم أكد أفهمها : بنت بنت كام أون • • فانتازيه • • كام ويندى ، وهو يضحك ، وأحسست الدم يتدفق الى رأسى وصحت به بصوت سمعته مخنوقا وأبح : شط أب شط أب يوبلدى باسترد وضاعت صرختى ورأيت الولد العسكرى يذهب فى الليل فاغر الفم يضحك ولا أسمع له صوتا اذ تحرك القطار فجأة وهو يصفر صفيرا أجوف غائر الصدى وينفث بخارا أبيض كثيفا فى الظلام ، ومرت النوافذ متسارعة الايقاع متتابعة مليئة بالوجوه الباهتة التى كأنما هى من الآن وجوه الميتين • ثم جاءت العربات المكشوفة المسطحة الأرضية تحمل دبابات صغيرة صفراء مشرعة المدفع مربوطة بسلاسل قوية ، ومعدات مفكوكة ، وغامضة ، مدببة الحواف ، مغطاة بأغطية من المطاط الأسود الثقيل • وسألتنى أختى لويزة ماذا كان يقول العسكرى الانجليزى فرددت عليها بخشونة وعنف لاشيء

لأشياء أخرى أنت كمان قصمت ورأيت الدموع تلمع
في عينيها ولا تنسكب

ساد المحطة صمت مفاجيء وأحسست هواء الليل
باردا على وجهي المندى بالعرق .

ضممتها الى ونحن نقف على الرصيف الخالي تحت
السقف الزجاجي المنير وأحسست صدرها الحريرى فى
حضنى ، صامتة الآن مستسلمة وقد أغمضت عينيها ..
استكنت ريعانتاي الخضراوان فى رقرقة الحب الذى لم
أكن أعرف عندئذ مدى الوجع الذى سوف يمضنى من
فقدانه ولا مخض الألم الذى سوف يطوح بى الآن فى
وحدتى الصامتة - لأواء هذا الصمت الذى يجار وحشيا
وليس له أبدا لغة ولا صوت .

وعندما جاء القطار أخيرا دخل على الرصيف الآخر
البعيد ولم يكن فى المحطة الصحراوية الصغيرة نفق
ولا سلالم .

جرينا معا متماسكين بالأيدى الى آخر الرصيف ،
وهبطنا ، تتسارع أقدامنا بالرغم منا على نهاية الرصيف
المنحدرة ، ونحن ننظر لأحدنا الآخر ، وكدنا ننزلق على
القضبان المزدوجة ، وضحكنا .

والقطار يتحرك الينا فجأة ونحن تحت • تعلق
مقدمته الحديدية المربعة الشكل البارزة الى الأمام ، فوق
رأسينا مباشرة • وأرى الخطوط العريضة المعدنية
لا ايقاف لها أمام عيني ، قريبة جدا • ساقاي تفلتان
منى وأسقط على القضبان ، أمام المقدمة تماما •
وينخطف في قلبي الروع عليها • أين هي ؟ أسالة هي ؟
ألم يحدث لها شيء ؟ حنوى لها يعصف بى وأنا على
الأرض • السائق يطل من باب القاطرة على جنب
يشور بيد ويهتف بشيء لأسمعه ، ويده الأخرى فى
الداخل تضغط على شيء ما ، على عمود ، أو زر ، أو
حلقه • وأحس يدي على الزلط والرمل الحشن تضغطان
معه بقوة ، بشدة ، بكل مافى جسمى من أيد واصرار ،
لكى أوقف معه القطار الزاحف علينا بجرمه الضخم ،
بيطء ، كأنما لن يرده شيء أبدا ، فيه طاقة مكبوحة
وساحقة • وأرى المصباحين الأماميين المستطيلين
برجأجهما الصلب المظفا تومض عليه أشعة الشمس
وتنعكس على عيني • وأجدها معى تسندنى بذراعيها
كلتيهما ، وأنا أقوم بحركة أحسها بطيئة لاتنتهى ، وقد
نزف من قلبي كل حس كأننى غريب • ونحن نتحرك
معا أمام القطار الذى ينساب ورائنا مباشرة ، باصرار •

والرصيف قد امتلأ فجأة بالناس يصرخون ، لا بد أنهم
يصرخون ولكنى لا أسمع صوتا ، ويلوحون بأذرعهم
ويجرون على الرصيف معنا وينحنون ناحيتنا ، يصيحون
بنا بلا شك ، ومازلت لا أسمع شيئا • قدماى تتحركان
أمام مقدمة القطار بالضبط ليس بيننا وبينها الا خطوة
واحدة لاتزيد ولا تنقص • لا يصطدم بى القطار
ولا أسقط تحته • وهى معى لا أحس الا بذراعيها
تمسكان بى مسكة خفيفة ولكن واثقة لاتتركنى • وجهها
هادىء وعيناها تلمع فيهما الشمس بخضرة داكنة ليس
فيهما خوف ولا قلق بل لا يكاد يكون فيهما اهتمام وان
كانتا مفروزتين فى ، ونحن نتحرك معا بايقاع واحد،
بضع خطوات أيضا ، طويلة فى الاحساس جدا ، وكأننى
أرقب شخصا آخر يداهما القطار ومعه حبيبته ، متفرج،
مدرك تماما للخطر ، ولكن بلا أدنى رعب ، ولا أدنى
توجس ، أنتظر فقط • لو جاءت الصدمة النهائية الآن،
وسقط كل شيء • لو تحطم كل شيء • لو حلت الظلمة
الأخيرة والصمت • طبيعى ، وحتم ، وأكاد أريده ،
ولا أرحب به • ولكن لا أرفضه ، لا أستسلم له أبدا •
ولكن فليأت ••

القاطرة مازالت تزحف علينا ، تنزلق ، وتكاد

تلتحق بنا • حتى يستطيع السائق بجهد جهيد أن يوقف
القطار •

ونتوقف لحظة ومازال الصمت حوالينا ساطعا
وفسيحا وكاملا • ينحنى الناس علينا يمدون الينا
أذرعهم ويرفعوننا من تحت •

للمرة الأولى أسمع لفظ الناس وصياحهم ونداءاتهم
ودبديبة أقدامهم على الرصيف •

الشيخ الذى يلبس جلبابا أبيض مكويا له ياقة
رفيعة قائمة تدور حول عنقه الضامر ، وعلى رأسه
طاقية من نفس القماش ، فى يده مسبحة ويده الأخرى
متوترة الأصابع مشدودة نحوى ، وأسمعه ، وهو يهمس :
لاحول ولا قوة الا بالله • الحمد لله • الحمد لله •
والست الفلاحة البيضاء الوجه ، بالملس الأسود المكشكش
الذى انحدر على كتفها ، وهى تهتف : اسم الله عليكم
ياضنايا •! دانتو انكتب لكو عمر جديد ، ياختى !
اسم الله عليكى يا حبيبتى ! اللهم حوالينا ولا علينا •
والطلبة ، بالبنطلونات والقمصان ، والكتب فى أيديهم ،
ينزلون جريا الينا ويحتاطون بنا • والفلاحين بأجسامهم
النحيلة تحت الجلابيب الصوف المفتوحة عن الصديرى
المززر بأزرار صغيرة كثيرة ، ووجوههم الصلبة المشققة ،

قد ركعوا نصف ركعة على الرصيف لا يتكلمون ، على استعداد أن يهبطوا للمساعدة • والعساكر بملابسهم الكاكي وأحذيتهم السوداء الطويلة قد لحقوا بنا والتفوا حولنا الآن يضحكون بخشونة وارتباك بعد التوتر والشدة ، ويرفعوننا على الرصيف بسواعد قوية • ونحن نعلو على هذا الجيشان المحتشد من الأذرع والأيدي واندفاع النجدة المتدفق بالتهنئة على السلامة والحمد لله •

ثم انفض الجميع فجأة واتجه الناس الى أبواب القطار كأنما بنجل قليل واضطراب بين الضحكات انقليلة وثرثرة الحس بالنجاة والانصراف الى ركوب القطار •

هل كان بالأمس فقط أنه صبحا من نومه جنبها معاذرا أن يوقظها ، وقبلها مع ذلك قبلة خفيفة جدا على شفتيها ، فردت على قبلته وابتسمت وهي نائمة ؟ ونزل ، حريصا على صمته وهدوئه ، وانتهى من « طقوس الصباح » - كما كان يقول لها ، فيضحكان - ولبس في السكون الصباحي التام وهي مستفرقة في نومها على سريرها ؟ كانت قد قالت له : سريرنا •

وكانت الملاعة الخفيفة تغطيها حتى الوسط ، وفخذها

العارية السمراء ، محتشدة بشبقيتها وجسدانيتها ،
تخرج عن الملاعة ، وفخذها الأخرى كامنة مستترة ،
ولكنها هناك . كتفاها المدورتان تدعوان شفتيه ،
وشعرها الأثيث مندى قليلا من النوم ومشعث قليلا ،
نزلت خصلة منه رقيقة ومبلولة ملتصقة بجبهتها
الصغيرة المستريجة ، وخداها متضرجان . كانت مستلقية
على جنبها ، كل معارك شهوتها قد انقضت ، لحظة ،
وتركت جسدها الباذخ بحتا ، ممتلئا بحشده الخالص ،
فى براءته غواية خاصة لايمكن أن تكون - فى حالة
صحوه - بكل هذا الكمال . غائبة وكلها هناك فى
وقت معا .

وكان الديك الأحمر على الحائط الحجرى يفتح
منقاره فى زقائه الصامت المتصل وعيناه متوقدتان .
انحنى عليها ، حفا بها ، ورفيقا وساكنا ، يرد
جواه الى طى نفسه حتى لاتعصف بها برحاء شهوته
وحنانه معا ، ولهفته ، بينما كل جوارحه تنتقض عليه ،
وتجيش وتتوتر . كان ثدياها مضغوطين تحتها فى
النوم ، مترفين فى اكتنازهما وحريرتهما معا . ثمرتاها
الداكنتان قائمتان مع ذلك ، مترعتان ، جلدهما المشدود
المدور مخدد لا يكاد بشقوق دقيقة جدا ، فى نور الشمس

لمتقطر من النافذة الزجاجية المفتوحة على الصحراء
والأنقاض القديمة • أما الوهدات اللينة والربى
الزاكية فملتفة بها الملاءة المتفضنة الملتصقة المهمة
الثنايا •

أحاط كتفها بذراعه ، وامتدت يده تسند نهدها
المضغوط وتلتف به ، وهمس فى أذنها : حبيبتي • •
فتململت قليلا فى راحة ، وتنهدت • وأحس نهدها
وادعا الى يده ومطمئنا فيها • ورفرفت عيناها قليلا
وهى تموء من داخلها : اممم • • بصوت خفيض مبطو
بالنوم الوثير • قال : أمشى أنا الآن • مسافر اسكندرية ،
وأعود الخميس بعد غد • خليك ، لاتقوسى • أراك
بخير • قالت ومازالت نائمة بالفعل وهى تعطيه خدها
لقبلة سريعة : مع السلامة يا حبيبى • • لاتتأخر •

وأغفت فى صمت فى ليل نومها المضىء ، لحظة ،
فى أول الصبح • لم يكن قد خطا خطوة واحدة • وعندما
اعتدل واقفا استدارت على ظهرها وفتحت عينيها
الواسعتين صاحية فجأة وقالت ، بصوتها الطفلى
المستعطف ، فيه شكاة قليلة وتطلب للحنان :

— هل عدت يا حبيبى ؟ حمد الله على السلامة •
كم كان سفرك طويلا • كم افتقدتك •

لماذا تأخرت ؟

ترقرقت عيناه على الفور وعرف مرة أخرى طسمة
الحب فى قلبه .

وقد استقر الآن على مقعدهما الجلدى الصلب
مسافرين معا أخيرا فى هذا القطار يقطع البرارى
التموجة حتى سطوح المياه الملحة المتخثرة بحياتها الراكدة
بين البوص والهيش .

ليس فى القطار درجة أولى أو ثانية ، والناس
حولهما قليلون . عساكر نازلين اسكندرية فى آجازه ،
خلعوا البيريه العسكرى اللين من على رؤوسهم الحليقة
نائمين تقريبا ، وقد مددوا أمامهم أرجلهم فى البنطلونات
الكاكي والأحذية الميرى . اثنان ثلاثة من البدو ،
بالملابس البيضاء والسراويل القماشية الطويلة التى
تضيق عند نهاية الرجلين ، فى وجوههم نحول وصفرة
معروقة . وشاب أعمى من المعهد حليق جدا ومتيقظ
جدا ، رفع رأسه الى فوق بعمامته الحمراء الملفوفة
بالشاش الأبيض ، وجبته الطويلة على قفطان مخطط
لامع ، يقرأ بصوت خفيض ولكنه قاطع وواضح :
«ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» والست البدينة أم
ملس واثقة بجسمها الفياض بالأنوثة المتمكنة ،

تمصمص بشفتيها اللحيمتين : ياخويا .. صدق الله
العظيم يا مولانا .. ثم تدخل فى حديث طويل مع فتى
واضح أنه طالب عائد لجامعته فى اسكندرية ، البلوفر
الخفيف على قميصه الأزرق القاتح المستورد ، والبنتلون
الجينز ، لاشك اشتراها مخفضة ببطاقتة الجامعية ..
وانت يا بنى فى ؟ فى الهندسة ؟ ربنا ينجح مقاصدك
ويخليك لشبابك انت واللى زيك يارب .. طب دانا عندي
ولد فى الثانوية العامة السنة دى حيموت نفسه فى
المذاكرة ياعين امه .. نفسه يروح الطب والا الهندسة ..
ربنا ينوله الى فى مراده هو والسامعين ، وهى تنظر
وفى عينيها حساب ووزن ، للفتاة بالمنديل الأبيض
السابغ الذى يلف وجهها وشعرها وينزل من على كتفيها ،
وفى أذنيها قرط فضى صغير دقيق ، وفستانها بأكمام
طويلة ينزل الى الأرض ، وسيور حذائها المفتوح تضغط
على لحم قدميها .. والبنت تدخل ذراعها فى ذراع
الطالب الذى ينظر أمامه كأنه لا يحس مات فعل ، بينما
هى ترفع اليه وجهها معابثة ونصف باسمه .. والست
تقول بصراحة الفهم والقبول : ربنا يهنيكم ببعض يا بنى
وينخبز لكم فى الخير ..

عربة القطار تقرقع بانتظام ، وهى تصطلى

بشمس سبتمبر الهادئة ، والشبائيك كلها معوجة
محشورة في مجراها ، وليس لها زجاج ، يدخل منها
الهواء السخن ، قام الفلاح الجاف الجسم يحاول أن يخلق
الشباك في وجه حبات الرمل الذى تسفيه رياح القطار
الى الداخل ، ولم يستطع ، فجلس وهو يقول لنفسه
شيئا بصوت غير مسموع .

كانت الرمال ممتدة في نور الصحراء الأبيض حتى
الملاحة التى تومض بموج بنفسجى فاتح ماؤه ساكن
كالصفيح اللامع ، يذوب عند الافق الباهت الزرقة
الذى ترتفع على حافته البعيدة عمائر من الهواء المهتز ،
ركام من السحب لها طبقات كأبراج كنائس غامضة
ثابتة وهفافة معا ، متشعة بلون الملح .

كانت ذراعه قد استقرت على كتفها الراسخة الطيبة ،
من وراء مؤخرة عنقها التى يحس نعومتها على قميصه
الصيفى ، ويحس أيضا دغدغة شعرها الجعد اللين ،
ويده قد هدأت على أعلى ذراعها النازلة تحت الفستان
الحريرى فى دوران كامل الامتلاء .

وسأل نفسه : هل انتهى البحث ؟ هل وجدت
ماأنشده ؟ وكان فى داخله يقين لا انكار له . ونادى :
ياشبلى ياشيخنا . هل المعرفة دوام الحيرة ؟ وحقيقة

المعرفة العجز عن المعرفة ؟ وقال لنفسه : أهذه جوهرة
حبي ؟ وكانت مستكنة اليه ، حمامته السوداء الوديعة
الآن ، وردته السرية - نفسها هادئة وإيقاع جسدها
فيه رضى واكتفاء باللحظة الصامتة المشبعة - فأغمض
عينيه عن ثرثرة القطار وجلبة الناس ودقات العجلات
المنتظمة الرتيبة التى أتخمت نفسه ، مرة أخرى ، بالخدر
الذى يهبط فى جسمه وتتفتر به جوارحه تحت وقع
الهدات المتراوحة فى اصرار لا يخطئ أن يأتى ، مرة
بعد مرة بعد مرة ، دون أن يبدو أن سيكون له أبدا
انقطاع .

وحكى لها أنه فى ليلة عيد القيامة الموحشة التى
جاءت قبل أن تسقط القدس ، عاد ماشيا للبيت فى
شوارع الاسكندرية الصامتة بعد أن انقطعت
التراموايات . كان الاجتماع قد استمر طويلا فى الليل
وكان الجدال واللجاج قد عصف وتقلب بالجماعة الصغيرة
المتوقدة بالحماسة والشباب . وقال انه كان قد كتب
أخيرا مشروع البيان ، وكانوا سيطبعونه من الغد
بالاستنسل على الماكينة التى صنعوها بأنفسهم . وقال
ان سذاجة ثوريتهم كانت بريئة وصافية وحمقاء قليلا ،
وكانت غضبتهم حاسمة ورفضهم قاطعا . وخرجوا

متفرقين ، وعلى فترات ، من المنزل الصغير فى المكس
الذى كان يقيم فيه سلامة العامل الوحيد فى لجنّتهم
المركزية المؤقتة . وقال انه ركب قطار المكس فى
الليل ، خاويا وقديما وصغيرا ، ونزل فى محطة محرم
بك ، وكان يشبه هذا القطار .

رجعت الى بيتنا فى راغب باشا وأكلت سمكة بلطى
مقلية باردة كانت أمى قد تركتها لى فى طبق مغطى
بفوطه نظيفة على مائدة الفسحة العريضة . وأويت
الى سريرى وأخذت أقرأ فى مجلة الشعر الدولية التى
كانت تأتىنى من باريس ، بالبريد ، حتى باب البيت .
وفتحت الراديو الكبير الذى كانت له واجهة عريضة
تضىء ، عندما يشتغل ، بالنور الأخضر . وتذكرت
فجأة أنها ليلة عيد القيامة عندما سمعت صوت البطرك
العجوز المنهك من الصيام الكبير ، يرتل بالقبطية أسماء
الآباء البطارقة القدامى جميعا من مار مرقس الرسول
حتى الأنبا يوساب ، اسما بعد اسم يبعث من أغوار القدم
ويحيا بالترتيل ، من جديد . رقية طويلة التسلسل
لا تنتهى . وأحسست فجأة أننى ابن هؤلاء البطارقة
العظام ، آباء المدينة العظمى الاسكندرية والكور
والجزائر ، ولا يمكن أن تكون لى الا أبوتهم ، وأن

ماكتبته منذ ساعات ونافحت دونه يربط بين قلبى
وبينهم وبين الأرض المستباحة ، برابطة حميمة خفية
لم أكن أتبينها • وعرفت أن هناك تبريرا كاملا لى •
كان الشاب الاعمى يصغى الى حكايته باهتمام ،
صامتا ووجهه مضىء ومتأمل وفيه وسامة لم يرها من
قبل •

قالت له ، هامة ، باسمه : طول عمرك يا حبيبى
لك شطحات غريبة جدا •

وفى عتمة خفيفة كأنه يتذكرها ولكنه يعرف أنها
هناك ، فى نصف حلم نصف يقظة ، سمع نواح القاطرة
المترامى فى السماء ، والارتطامات الحديدية التى
يتردد صداها فى الليل الفسيح خارج حيطان غرفته •
عويل معدنى شاك طويل • بينمادق المنبه الى جانبه يأتيه
سريعا وعصبيا ولجوجا • وأزيز طائرة ينطلق فجأة فوقه
فيملأ غرفته ، يصعد وراءه نباح الكلاب التى تجمعت
فى الشوارع تجرى وراء صوت الطائرة وطارده • كان
البرص المصفر البياض ثابتا مقلوبا على بطنه ومفروش
الأرجل على سقف الغرفة ، فى نور سماء الليل الغامضة ،
وذيله الطويل لا يتحرك • وفكر أن بحر البقر ونجع
حمادى قد ضربت وأن الأطفال والعساكر يموتون •
ولم يفكر فى شيء آخر •

مر القطار بأسوار عريضة عالية فى الصحراء
عليها لافتات ضخمة بالانجليزية والعربية ، وبين
الأسوار سيارات جديدة مستوردة من ماركة واحدة لم
يستطع أن يحددها • مر سيدس ؟ فولفو ؟ بيجو ؟ بألوانها
الزرقاء والحمراء والصفراء والفضية ، صفوفًا متعاقبة
لامعة تحت الشمس ، كشواهد قبور معدنية •

ثم وقف القطار فى وسط العراء الصحراوى دون
تفسير ، دون سبب • ليس هناك محطة ولا مزلقان •
السكون الغريب يجعل فجأة ويصمت الناس مرة واحدة
ويهب الهواء المنعش فى الصمت ، جافًا وخفيفًا ،
وفيه رائحة البحر ، ورائحة الرمل الساخن • دخلت
من الشباك ذبابة وحيدة زرقاء كبيرة تقلبت ألوان
جناحيها الرفيعين فى شعاع الشمس ، وهى تنز أزيًا
لحوا ، عنيدا ، يكهرب الأعصاب ، وتحوم فى دوائر
سريعة متقاطعة ، حتى اندفعت فى النور خارج الشباك •
قالت الست أم ملاية ياختى خير اللهم اجعله خير ، هو
فيه ايه ؟ وقام الطالب ، سحب ذراعه من ذراع زميلته ،
وذهب الى مقدمة القطار ليسأل ، ربما ، عن السبب •
وانخفض صوت الشاب المغمم وهو يلم حوله جبته
وقفطانه ، يقرأ بصوت غير مسموع • وفجأة احتكت

العجلات بالقضبان الحديدية فى انتفاضة حادة ،
وتقلقت العربات ، واستجمع القطار قوته بالتدريج ،
وانطلق ، بطيئاً فى الأول ثم متسارعا ثم منتظم السرعة .
دون تفسير *

ندخل الآن على الاسكندرية ، والعربات تميل
وثنحرف الى اليمين ، وتهتز بين القضبان المتشابكة ،
وتتغير ايقاعات خبطات العجلات اذ تصطدم بالتحويلات
المفتوحة * والقطار فوق ربوة عالية ضيقة يضرب بين
الأعمدة والسيمافورات التى ترتفع أذرعها وتنخفض
وتومض بالأخضر الكايبى بعد الأحمر المحققن ،
والشوارع تحت جسر القطار خالية سوادها يلمع ببلل
المطر وأشجارها تبدو ، تحت ، قصيرة ومقصوفة
النواصى ، تمرق فيها سيارات قليلة مسرعة * وتتوالى
جدران المصانع والمخازن مقفلة وصارمة الشكل * كان
البدو الثلاثة صامتين لا ينظرون الى شىء ، وجوههم
منحوتة وجامدة * والبيوت الفقيرة الجدران عركتها
تقلبات الجو والأمطار القديمة والشموس المتعاقبة ،
أدوارها العليا مفتوحة الشبايبك تتلاحق على مهل كأنها
تطل على القطار * وبعد وحشة الرمل ومياه الملح
الشاسعة تبدو البيوت دافئة ومكنونة على طواياها

الحميمة ، تقترب من جسر السكة الحديد المرتفع حتى لا يكاد يفصل بينها وبيننا شيء • والقطار يبطن قليلا فوق الفلنكات ويظهر الآن على جانبه ، بوضوح ، الزلط والحصى ونباتات الحلفاء ويقع من الحضرة الباهتة ، ونفايات ورق قديم وزبالة جففتها الشمس • نوافذ البيوت وشرفاتها الخشبية القلقة تكشف من غير خجل ، من غير أدنى حس بالخجل ، عن حياة الناس الداخلية وملابسهم الداخلية وأثاثهم الداخلى الرث الكثيف المزدهم بالكراكيب ، والجلاليب المرمية على مراتب بلا ملاءات ، وفساتين ذابلة الألوان ، ومرايا مكسورة الأطراف معلقة بمسمار ودوبارة على الحيطان وفوق الأحواض والحنفيات ، والآيات القرآنية بالخط الثلث الفخم وصور مارجرجس ، وبدرلما ، وأسمهان ، والملك قواد ، مقطوعة من المجلات ومعلقة فى براويز مذهبة متقشرة الطلاء •

كان الشاب المعمم قد نام ، مال برأسه على ظهر المقعد ، والجنود قد وقفوا ، طوال القامة ، بعد أن لبسوا أحذيتهم ، يستعدون للنزول •

وجاء المبنى الرمادى الكئيب بنوافذه الضيقة ، المتقاطعة بالقضبان الرفيعة السوداء ، وسوره المنخفض

الموحش عليه أسلاك شائكة ، وقامت عساكر الحرس فى أبراجها صغيرة ، كالدمى ، على أكتافها بنادق لها ماسورة طويلة هشة .

وتنفتح الشوارع فجأة تحت الأكمة التى ينزلق عليها القطار ، وترتفع اعلانات الكينا الحديدية فيها رأس أسد ضخمة ووديع ناتئ الأنياب وله عيون انسانية جدا . وثكنات بلوك النظام بجدرانها الكالحة، ونوافذها المربعة ، منشورا عليها الفانلات والسراويل العبك المصفرة الطويلة الرجلين ، والبذل الكاكي المفضنة الداكنة من بلل الغسيل . ثم مستشفى الرمد يبدو عاليا الى جانبنا ، أنيقا ، وحيطانه بالطوب الأحمر الداكن ، وله أبراج وأعمدة رشيقة هيلنية الايحاء ، وحوله أشجار النخل السلطاني السامقة تنوس جدائلها المدورة فى زرقة السماء .

نظر الطالب المترفع الى زميلته المحجبة المعابثة بنظرة فيها نصف ابتسامة . وقالت الست أم ملاية ملس حمد الله على السلامة .OLF الفلاح العجوز مسبحته حول اصبع يده ، وتنحنح فى تشوف مشارفة الوصول .

ونحن ندخل فى هواء البحر الرطب الى ساحة معقدة
بشبكات القضبان المتوازية والمنفرجة والدائرية ذاهبة
فى كل الاتجاهات ، وأعمدة السيمافور المتتابعة عن
قرب ، والمخازن الجانبية الحجرية والخشبية عليها تعريشات
كثة من اللبلاب وتحت جدرانها نباتات التين الشوكى
والعتر البلدى ، والقطارات المكونة الخالية ، وعربات
البضاعة المقفلة وحدها من غير قاطرات ، جدرانها لها
لون صدىء وعليها أرقام طويلة جدا بالانجليزية ،
مهملة .

وفى العربية كلها تنهيدة راحة فقد أوشكت رحلتنا
على الانتهاء . ثم دخل القطار فجأة فى النفق .

أطبقت الظلمة الكاملة مرة واحدة وارتفعت صرخة
ثاقبة قصيرة ، من الفزع ، وصيحات الركاب الملهوكة .
وكان القطار يخبط فى النفق .

خطر فى ذهنه أن هذا النفق القصير تحت كوبرى
الحضرة لا يكمن أن يستمر طول هذا الوقت . واشتدت
ضمة ذراعاه حول كتفها ، وأحس جسمها الوادع ،
بكامله ، لصيقا به ، دفيئا وناعما ومليئا ، من غير خوف ،
فيه الأمن به ، والتسليم له .

كان القطار يندفع متحدرا الى الأمام كأنه يفوص
بمقدمته الى عمق يزداد غورا كلما مضى ، يصطدم
ويقرقع ، فى طريقه الى جوف الأرض ، وقد اضطردت
سرعته وكأنها اكتسبت عزما جديدا لن يلويه عنه
شئ .

كل شئ يجرى فى ايقاع خاطف ، والدقات
المتلاحقة تزداد ارتفاعا فى النفق الضيق ، ويتضخم
صداها اذ تلتطم بجدران الحيز المحبوس . وكأنما تجمد
الناس فى هذه الانفجارات المتعاقبة القعقة ، وصمتوا
تماما ، وتشبث كل منهم بمقعده فى العربة التى تهبط
مع سلسلة عربات القطار ، لن يوقفه شئ الآن .
اصطفاق الحديد ولجب الحديد فى الظلمة الماشدة التى
أخذت تشف قليلا ، وهو يرى كل من حوله ساكنين
بلا حراك ، ولا يرى فى ذلك أدنى غرابة ولا ما يستدعى
السؤال .

يحس ثقل رأسها الهين على كتفه ، وشعرها الوحف
تحت عنقه ، مستكنا اليه ، وهى نائمة . خدينته الموموقة
المشتهاة التى لانت له الآن ، طيبة فى حضنه ، ووثيرة .
هناك صمت عميق فى قلب هذا العجيج الموقع المنتظم
الدقات . وهى قد آلت برأسها اليه . كأنما لا مكان

لها فى العالم كله الا على كتفه ولا اطمئنان لها الا تحت
ذراعه • وفخذها اللفاء تحت النسيج الحريرى الدمث
يحسها الى جانب رجله • ويدها الرخصة فى يده ، على
حجره ، مسترخية وهادئة فى ثقل النوم •

فى جوف الحوت المقتحم اللبج دعوتك فاستجبت
الى دعائى من قلب نومك • وعندما طرحتنى الى عمق
الجب أحاطت بى مياه الحنو الكثيفة الساجية وانفتح
لى هيكل قدسك السلس المواتى ، اكتنفتنى غمرات
جسدك المترقرق بين ذراعى ، فى العتمة الشفيفة ،
والتف بى عشب البحر الغض المترجرج فى موجه •
أحاطت بى وهدتنى اللينة وتفتحت لى مغاليق كنزى •
وكان اصطفاق الصنوج ساطع الدوى ونهاثيا •

واندفع نور الشمس فجأة فى القطار •

فى اللحظة التى انتهى فيها النفق أحس أن القطار
قد اصطدم صدمة أخيرة بشيء مطاوع وهين القوام •
ووقف •

كان الناس يتدافعون بصمت ، كأن ليس فى الأمر
شئ غريب ، كأنهم ينزلون الى المحطة التى يعرفونها ،
وكل منهم مشغول بهومومه وحده • وثب الجنود ، كماداتهم

على كل حال ، من النافذة • وكان الشاب المعمم هادئاً
يتحسس جدران القطار وظهور المقاعد الجلدية بيديه ،
من غير لهفة ، فى طريقه للخروج • والولد يحيط
بذراعه خصر فتاته ذات الفستان الطويل ، يستندها ،
وكأنه غائب لايسأل ولايهتم حقاً ، كأنه فقط يؤدى
واجبا •

كانا معا متماسكين بالأيدى فى ضمة حميمة
ويائسة ، عندما سقطا من باب القطار فى نور الظهر
الفسيح • غاصت أقدامهما فى الرمل الناعم • وكان
شاطئ البحر أمامهما مباشرة ، والموج يأتى وينحسر ،
مياهه المزبدة تضرب صخورا صغيرة مدبية ومشعثة ،
قديمة الصفرة ، منقورة بحبيبات دقيقة سوداء ،
وتذوب رغوتها بحفيف هين على الرمل ، بين
الصخور •

مقدمة القطار مدفونة بأكملها فى الرمل ، كأنما
قذفتها قوة الاندفاع الأخيرة • وبقية العربات مازالت
تحت الجسر الحجرى العالى ، واقفة فى عتمة النفق المدور
الطويل • ولم يعد هناك أحد •

والبحر فسيح ، شاسع ، نقى الزرقة ، تلعب عليه
خطوط الزبد المتعرجة ترغى وتختفى • كانت الأعمدة

الحديدية الناحلة معوجة وساقطة على الرمل ، وأنقاض
المحطة تحيط بهما ، على شاطئ البحر • الأحجار الضخمة
ساقطة وصامتة كأنما أطاح بها زلزال ، حوافها مكسورة
بين أكوام من الهدد والزلط • وعوارض حديدية
محتركة ومتلوية شاخصة من بين الركام • وقضبان
السكة الحديد متقاربة من أحدها الآخر أمام مقدمة
القطار ، ثم متطابقة ومنفروزة في الرمل • وأمواج
السقف الزجاجي مازالت معلقة في الهواء ، جانحة ،
تهدد بالسقوط ، ولكنها ثابتة ، مدلاة من عمود مائل
واحد قد استقر ، في وضع لا يصدق ، بين نتوءات الرمل
والحجر والحديد •

كانت تقف الى جانبه ، جسمها الغض يلخص له
العالم ، بلغة حميمة من غير صوت •

وتحت أقدامهما مباشرة ، تحت حطام المحطة المدمرة ،
كانت هناك هوة محفورة ، عميقة ، ضخمة وواسعة ،
وجدرانها المتماسكة غائرة • وعلى قاعها العريض ،
تحت ، بعيدا ، تتحرك قامات صغيرة تحمل على أكتافها
قفف الأسمنت المخلوط • من أين جاءوا بها ؟ ليس هناك
على الخافة الا كتل مكسرة متهاوية تكاد تنقض من على

طرف الحفرة الفاعرة ، والأرض رملية تحتها ، هشة
ومتفتة .

ورأى ، من غير دهشة ، اثنين من الصعايدة ، تحت ،
ينفصلان عن صف الناس ، رأهما صغيرين جدا كأنه
يطل عليهما من حلق ، يتحركان حركة ايقاعية بطيئة
موزونة ، وفي أيديهما عصي التحطيب ، مرفوعة ، وهما
يصطدمان بالعصى ، ويناوران ، يرجعان ويتقدمان ،
يتقاربان ويتباعدان ، ويدوران أحدهما حول الآخر
فى رقصة موسيقى رجولية ، والجسم مشدود بكبرياء
وخفة .

أحس الحافة تحت قدميه تكاد تفلت وتتداعى ،
فاشتدت قبضته على يدها .

هبت رائحة البحر ملحية ومطهرة . ونظر إليها ،
ولم يتكلم ، ولم يبتسم ، كانا ، فقط ، فى وسط
الانقراض ، معا .

الاسكندرية أبريل ١٩٥٥

القاهرة نوفمبر ١٩٨٤

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٢٨٩٠

ISBN ٥ - ٥٩٤ - ٠١ - ٩٧٧

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

« محطة السكة الحديد » .. رواية جديدة للكاتب الكبير « إدوار الخراط » استغرقت كتابتها قرابة ثلاثين عاما . وهي روايته الرابعة بعد : « أضلاع الصحراء » ، « رامة والتين » ، « الزمن الآخر » ، ونصوصه القصصية الأربعة : « حيطان عالية » ، و « ساعات الكبرياء » ، و « اختناقات العشق والصباح » ، و « ترابها زعفران » ، وكلها نصوص حداثية طليعية ارتاد الكاتب فيها الحساسية الجديدة التي يسعى لتأصيلها بالعمل القصصى والنقدى .

وقد صدرت للكاتب ترجمات لثلاث روايات ، وثلاث مجموعات قصصية ، وخمسة كتب في الدراسات ، وأربع عشرة مسرحية .

و « محطة السكة الحديد » بؤرة موازية ومكثفة للعالم ، ينصهر فيها الواقع بالحلم ، وتتداخل الأزمنة .. شطحات الجسد تُخامرها فتوحات الروح ، تتجادل الرموز فيها والدلالات ، وتتوهج الأسئلة عن الوجود والمصير بلغتكسب العربية التليدة حيوية المعاصرة ، ومضرية المذاق ، ويتضافر فيها الشجر بهوم الإنسان اليومية .



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ فرشا

2.736
5mah



0534506